جمال البنا

نعم للولاء .. لا للبراء

قضية الولاء ، والبراء

هي قضية الآخر التي أضلت أجيالاً عديدة

من شباب الدعوات الإسلامية

المحتويات

الحمد لله
الذي لا نعبد أحدًا سواه

قضـية الـولاء والـبراء، هي قضـية الحكم على النـاس مـا بين مؤمـنين وكـافرين، والموقف الذي يتخذ من كل منهما، بعبارة أخرى قضية "الآخر" وكيف نقـف منـه، وقـد آمنت بهذه القضية مجموعة من شباب الدعوات الإسلامية بالكيفية التي يقدمها الفقــه السلفي فأضلتها وأسهمت في انحرافها، وقذفت بهم إلى غيابات السجون، ولم يتـبينوا خطأهم إلا بعد ثلاثين عامًا وبعد أن أفنوا زهرة شبابهم في السجون المظلمة.

وقضية "الولاء والبراء" بالصـورة الـتي يقـدمها الفكـر السـلفي هي حصـيلة ثلاثـة روافد أساسية، كل رافد منها يمثل جانبًا من جـوانب القضـية، وتتلاقى الروافـد الثلاثـة لتظهر قضية "الولاء والبراء".

الرافد الأول الذي يمكن أن نسميه رافـد الخـوارج الـذي ظهـر في حـرب صـفين نتيجة لرفع معاوية وأنصاره المصاحف على أسنة الرماح داعين إلى الاحتكـام للقـرآن، وكانت بالطبع خدعة سياسية أريد بها إيقاف انتصار علي بن أبي طالب والحيلولـة دون أن يقضـي على معاويـة، ولكن جانبًـا من جيشـه مـا كـان يمكن أن يطعن رجلاً يـدعو للاحتكام بالقرآن، فتجاوب مع هذه الدعوة وطالبوا عليًّا بن أبي طـالب بـالنزول عليهـا، ولم يجد علي مفرًا من الاستجابة فسيوفهم على عواتقهم، وقد جـازت عليهم الخديعـة تمامًا.

كانت صيحة "إن الحكم لله" "دعـوة مشـئومة"، أودت بالخلافـة الراشـدة ، وأدت إلى الملك العضوض، وظن أنها قبرت مع انقراض الخوارج، ولكنها عـادت مـرة أخـرى للظهور في العصر الحـديث على يـــدي المـودودي وســيد قطب، فـانحرفت بالـدعوة الإسلامية من طريقها الرحب الآمن إلى طريق المخـاطر والعنـف، وقـام دعاتهـا بـأبرز التجارب الفاشلة في المجال السياسي عندما أرادوا تطبيق نمط مثـالي وخـاطئ على نمط عملي وواقعي وخلفت وراءها المئات من المخدوعين الذين أمضـوا شـبابهم كلـه في السجون.

ومن مفردات هذا الرافد الغلو في اعتبار من يرتكب إثمًـا أو فاحشـة فإنـه لا يُعـد مسلمًا ويجوز ـ بل تجب ـ مقاتلته.

والرافد الثاني : هو رافد الفكر الإمبراطوري الذي أعطى القضية طابعًـا سياسـيًا، وعُـني بالعلاقة ما بين المسلمين وغير المسلمين، وأظهرت لنا الأحكام السلطانية عن أحكام الديار : دار إسلام ودار كفر، والقيود التي تفرض على الـذميين وطـرق التعامـل

وكلها من منطلق الإمبراطورية، وتعد قريبة من أحكام الإمبراطورية الرومانية بقدر ما هي بعيدة عن أحكام الله والرسول.

الرافد الثالث : الرافد التوحيدي الوهابي، أي فكرة الإمام محمد بن عبد الوهاب التي استقاها بدوره عن ابن تيمية وابن القيم وتتمحور في استبعاد أفكار الشفاعة والتوسل وبناء القبور وإقامة القباب، واعتبار ممارسة ذلك مفسدًا للتوحيد.

وفي أصل هذه الروافد الثلاثة الظاهرة التاريخية التي هي "أم" الولاء فما أن يظهر دين جديد حتى يتصدى المسئولون من رجال حكم أو كهنة أو مترفين لحربه وتشتد الحرب بقدر صلابة وإيمان الأنبياء ويُضطهد المؤمنون اضطهادًا شديدًا ثم قد يتحول الأمر إلى الحرب والتقاتل، في هذا المناخ تكون الدعوة الدينية الناشئة في أحوج الأوقات والمناسبات إلى أن تضم كل أعوانها تحت جناحيها وأن ترفض أي استخذاء أمام الآخر فتظهر الولاء للمؤمنين، والبراء من المشركين، ولما كان موطن الخطر يأتي من أي استسلام أو ضعف إزاء المشركين فإن هذا يؤدي إلى درجة من تأصل موقفي الولاء والبراء بحيث يظلا حتى بعد أن تهدأ العداوة وتنتهي الحرب.

ظاهرة الولاء والبراء ظاهرة طبيعية في ظل ظرفها التاريخي، ولكنها عندما تستمر بعد ظرفها التاريخي تفقد طبيعتها الخاصة، وبالذات بالنسبة للبراء، ويصبح التمسك بها هو التمسك بحالة الحرب في عهد السلام.

وحالة "الولاء" طبيعية في الأديان، ودائمة فيها لأنها تقوم على المحبة، والتعاون، والتكافل، وهي صفات إيجابية تعد مما تتميز بها الأديان عن المذاهب الأخرى، ويمكن أن تمتد من المؤمنين بدين ما إلى المؤمنين بدين آخر، ما لم يشن هذا الآخر حربًا أو يمارس اضطهادًا، لأنه عندئذ يصبح "مسالمًا"، وفي الإسلام، فإن كل مسالم هو مسلم إلى حد ما، وتصبح مسالمته مثل إفشاء السلام على من تعرف ومن لا تعرف، وهذا هو ما قرره الإسلام في الآية القاطعة " لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الممتحنة 8).

وحدث الانحراف في فهم هذه الظاهرة التاريخية عندما فرضت الروافد الثلاثة السابق الإشارة إليها نفسها عليها وحملت إليها مؤثرات نظرية، فكرية بعيدة عن السياق التاريخي العملي الذي أوجد الظاهرة، فغيرت من طبيعتها، **فبعد أن كانت ظاهرة تاريخية بتأثير العداوة المحتدمة التي تصل إلى الحرب ما بين الدين الجديد والوثنية القديمة، وتنتهي بنهايتها أصبحت معلمًا من معالم العقيدة المقررة وتظل ما ظلت العقيدة.**

ويقتضينا الإنصاف أن نقول إن الملابسات التي ظهرت فيها دعوى الــولاء والــبراء في مصــر في الفــترة المعاصــرة كــانت ملابســات العــداوة المريــرة بين عبــد الناصــر والإخوان وما مارسه من تعذيب وحشي واعتقال عشرات الألــوف، وأن هــذا أعــاد إلى الحياة الآيات التي أنزلت على إبراهيم من ثلاثة آلاف عام والتي أرســلت إلى الرســول منذ ألف وأربعمائة عام، لعل هذا جعل هؤلاء الشباب يستشــهد بهــا ويعملونهــا، فيربــط أنصارهم برباط الموالاة حتى لا ينفرط عقدهم ويتشتت ويبرءون من أعــدائهم حــتى لا يتطرق إليهم الاستخذاء، وقد يشفع لهم هذا شيئاً ما، ولكن يصدق المبدأ العــام، أعــني **أن هذه الظاهرة تحدث عندما تدعــو الدواعي التاريخية، والذي أســاء إلى الجماعــات الإســلامية هــو ليس الموقــف من الظاهــرة التاريخيــة، ولكن التداعيات التي حملتها الروافــد، والتي كانت أقوى من الظــاهرة والــتي أفسدت العقيدة، ومن فساد العقيدة ـــ وليس من اتبــاع المواقــف الــتي تعد "رد فعل طبيعي" مع موقف احتدام العداوة ـــ جاء الانحراف**.[

القاهرة في

رمضان 1428 هـ

سبتمبر 2007 م

الولاء والبراء كجزء من العقيدة

أشرت في مقدمة هذا الكتاب إلى أن الولاء والبراء في حقيقتـه موقـف وسـلوك وليس عقيدة، والعقيدة قيم مقدسة ثابتة، وهي في الإسلام الإيمان بالله تعالى ورسله وكتبه واليوم الآخـر، فهنـاك فـرق بين العقيــدة وبين الـبراء والـولاء، ومـع أن العقيـدة تتطلب بحكم علاقة المؤمن بها ولاءً، فإن هذا لا يحسب على العقيدة عند تطبيقه، كمـا لا يمكن أن يقـال أن العقيـدة تتطلب هـذا النمـط من الـولاء، فهـذا كلـه حكم الرجـال والاتجاهات التي يتجه إليها كل صاحب رؤية أو رأي، وأن النصوص القرآنية التي ربطت ما بين العقيدة كعقيدة الولاء لمتبعيها، والبراء من مخالفيها، فهذا أمر ينقل العقيدة من مجالها وطبيعتها إلى مجال آخر، وطبيعة أخـرى، إنمـا نـزلت عنـد احتـدام العـداوة بين الـدعوى الناشـئة والعقائـد القديمـة المتبعـة، وأن هـذه الحالـة تتطلب من المؤمـنين التكاتف والتلاحم والموالاة ما بينهم، كما تتطلب أيضًا منهم البعد عن المشركين وعدم الانحياز إليهم، وأن الولاء والبراء هنا موقف طبيعي تقتضيه طبائع الأشـياء، وضـرورات الوضع القائم، ولكن هذا الموقف لا يستمر، لأنه ينتهي بالحرب وبدء فترة السـلام بعـد انتصار الإيمان فتنتهي أوضاع الولاء والبراء.

ولكن الذي حدث أن روافد معينة أثرت على العقيدة وأعطتها طبيعة خاصة بحيث أصبحت ظاهرة الولاء والبراء وضعًا دائمًا مقررًا، ولم تعد المعركة بين إبراهيم وقومـه، أو المسلمين وقريش، ولكن بين الملتزمين العقيدة السمحة والذين يفرطون في جزء منهـا، لأن هـذا التفريـط يخـرجهم من الملـة ويجعلهم كفـارًا وعندئـذ يعـود دور الـولاء والبراء.

لقد أشرت إلى ذلك في المقدمة إشارة عابرة، وكان على أن أفصل هذا التطــور الخطير الذي جعل للولاء والبراء مكاناً دائمًا ما بين الملتزمين والمتهاونين، وكنت أديــر في ذهني أحسن المداخل لمعالجة هذه القضية عندما وقـع في يـدي بطريـق الصـدفة كتـاب مـوجز باسـم "نظـرات في واقـع محمـد قطب المعاصـر.. قضـية الحكم على الناس"، من تأليف كاتب سعودي هو الأسـتاذ عبـد الـرحمن شـاكر نعم اللـه، في عـام 1990م.

وما أن بدأت في قراءاته حتى وجدت أنه خير ما يُقدم كنمـوذج لفكـر المجموعـة الـتي تجعـل " الـولاء والـبراء " جـزءًا من العقيـدة، وبـذلك حكمت على من يخـالفهم بالكفر، ومَن لم يحكم عليهم بذلك يصبح كافرًا هو الآخر.

إن هذا الكتاب يقدم لي مزاعمهم في أقوى صورة، ولو جعلته نقطة البداية، فإن هذا سيعطي المعالجة قوة وحيوية وواقعية، قد لا تتوفر في المعالجات الأكاديمية، والكتاب بدوره لا يقوم على دراسة معينة أو موضوعية أصلاً، ولكنه جاء ردًا على موقف كاتب إسلامي معروف هو الأستاذ محمد قطب، وهو أخ شقيق للشهيد سيد قطب، وقد اصطلى بالأحداث والتجارب المأساوية الفاشلة بحيث نهج نهجًا يخالف فيه أخاه سيد قطب، ويدعو إلى نوع من الموادعة نحو الآخر، وتركيز الجهد في إصلاح نفوسنا وتعليم الآخرين، ولم يعجب هذا الموقف المؤلف فأصدر كتابه ليفند هذا الموقف وليظهر صحة وسلامة موقف الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين، ولا يعني هذا بالطبع أننا سنقتصر عليه، لأن المراجع عن الموضوع عديدة.

بدأ المؤلف كتابه :

[إن قضية الحكم على الناس بالإسلام أو الكفر لهي من القضايا الهامة والأساسية بالنسبة لأمر عقيدة المسلم للارتباط الوثيق بما يترتب عليها من آثار متمثلة في حقوق وواجبات في مواجهة الآخرين والتي عبر عنها الشرع بالولاء والبراء، وهو الركن الركين لعقيدة التوحيد].

[ولما كانت هذه القضية تحتل هذا المركز الأساسي بالنسبة لعقيدة المسلم ولما ترتبه من آثار، فقد ضبطها الشرع الشريف على النحو المحكم مانعًا مادة الاختلاف ــ وإن وقع ــ بين أفراد الأمة].

هذه الفقرات التي بدأ بها كتابه تبين لنا المدخل الخاطئ الذي سلكه المؤلف، فما لنا والتوغل في عقائد الناس والحكم عليهم "بالإسلام والكفر"، والناس إما مسلم يقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ويكتسب بهذا عصمة الإسلام وإن زنا، وإن سرق، كما جاء في حديث لأبي ذر ، وليس من الواجب علينا أن نتقصى سرائره وأن نعلم تفاصيل اعتقاده، لأن هذا فضول، وقد وجهنا الله "عليكم أنفسكم"، وإذا فعلنا فهو نوع من التجسس والتلصص قد يكون أسوأ مما نأخذه عليه، وإما أنه يهودي أو نصراني أو من أي ملة أخرى، وليس لنا مع هذا شأن، وقد أراد أبواه له هذا الدين وهو طفل رضيع فشب على ما أراده له والداه، وقد تقبل الإسلام التعددية الدينية، وقال بصريح العبارة "لكم دينكم ولي دين"، فترك الكفار على ما هم عليه، بل وأقر أنهم لن يؤمنوا، كما أن المؤمنين لن يكفروا كما أقر أن شركهم ديناً.

وقد كانت أم خالد بن عبد الله القسري حاكم العراقين "نصرانية"، ولما ذكر ذلك بعضهم قال :

يقولون نصرانية أم خالد   فقلت دعوها، كل نفس ودينها

وفي العصر الحديث أصدر قاض من أكبر القضاة لأمثال هؤلاء كتابًا بعنوان "دعاة.. لا قضاة"، فانظر كيف لم يعتبر نفسه قاضيًا في مجال الإيمان والكفر، في حين أنه بحكم الوظيفة كان من أكبر القضاة.

والإنسان لابد وأن يدهش للطريقة التي يعالج بها قضية من أخطر القضايا استأثر الله تعالى بالفصل فيها يوم القيامة مع الرغبة الطاغية في الحكم على الناس وتقرير الموقف منهم والسلوك العام تجاههم تبعًا لما ينتهي إليه تصنيفه لهم.

كان طبيعيًا وآراء المؤلف على ما قدمنا أن يثور وأن ينتقد الأستاذ محمد قطب عندما كتب [وقد كان لي موقف قديم في هذه القضية ـ منذ سنة 1965 ـــ اقتنعت به بعد سنوات من التفكير الدائب فيها ومازلت مقتنعًا به إلى هذه اللحظة، هو أن قضيتنا الأولى والكبرى ليست هي قضية الحكم على الناس، إنما هي قضية تعليمهم حقيقة الإسلام، فلا ينبغي أن تشغلنا تلك القضية أصلاً].

وقال "ومن ثم ينبغي أن تنصرف جهود الدعاة إلى إزالة هذه الجهالة ولا تتشتت ولا تتناثر في قضايا لا طائل وراءها كقضية الحكم على الناس".

وعلق المؤلف على ذلك :

[فجعل من قضية الحكم على الناس قضية لا طائل من وراءها مع وضوح خطورة هذه القضية في عين الشارع، والذي قد رتب عليها ركن الولاء والبراء في عقيدة المسلم والتي لا تنعقد إلا به، ولا يعد مسلمًا إلا من قام بها].

وضرب الله لنا في ذلك الأمثال وأمرنا بإتباع الأسوة الحسنة، فقال عز من قائل : " قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ " (سورة الممتحنة 4).

وقال تعالى : " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (سورة الزخرف : 26 ـ 28).

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ :

[وقوله : "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ" (الزخرف 26)، قال ابن كثير : يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها : إنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال : "إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (الزخرف 27ـ28) أي هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي لا إله إلا الله جعلها في ذريته يقتدي فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام "لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" أي إليها [1].

---

[1] **فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص 109.**

وفي هذا المعنى من الأدلــة وأقوال المفسرين، ما امتلأت به كتب التوحيد.

ورأى المؤلف أن يستنجد بـآراء الشـهيد سـيد قطب فقـال : إن هـذا الاتجـاه في تقييم هذه القضية يختلف عما انتهجه الشيخ الكبير سيد قطب رحمه الله تعالى والـذي يحرص على بيان حقيقة الناس للناس ومـواجهتهم بهـذه الحقيقـة كاملـة وذكـر أن في ذلك خيرًا للداعية وللناس، حيث يقول :

[والذين يقولون إنهم مسـلمون، ولا يقيمـون مـا أنـزل إليهم من ربهم هم كأهـل الكتاب ليسوا على شيء، والذي يريد أن يكون مسلمًا يجب عليه بعد إقامة كتاب اللــه في نفسه وفي حياته أن يواجه الذين لا يقيمونه بأنهم ليسوا على شيء حـتى يقيمـوه، وإن دعواهم أنهم على دين يردها عليهم رب العالمين، فالمفاصلة في هذا الأمر واجبـة ودعوتهم إلى الإسلام من جديد هي واجب المسـلم الـذي أقـام كتـاب اللـه في نفسـه وفي حياته فدعوى الإسلام باللسان والوراثة دعوى لا تفيــد إسـلامًا، ولا تحقــق إيمانـاً، ولا تعطي صاحبها صفة التـدين في أي ملة وفي أي زمان، إن دين الله ليس رايـــة ولا شعارًا ولا وراثة] [2].

ثم يقول :

[وعلى المسلم أن يجهر بهـذه الحقيقـة ويفاصـل النـاس كلهم على أساسـها ولا عليه مما ينشأ عن هذه المفاصلة والله هو العاصم، وصاحب الـدعوة لا يكـون قـد بلـغ عن الله، ولا يكون قد أقام الحجة لله على النـاس إلا إذا أبلغهم حقيقـة الـدعوة كاملـة ووصف لهم ما هم عليه كما هو في حقيقته بلا مجاملة ولا مداهنة، فهو قـد يـؤذيهم إن لم يـبين لهم أنهم ليسـوا على شـيء، وأن مـا هم عليـه باطـل كلـه من أساسـه، وأنـه يدعوهم إلى شيء آخر تمامًا غير ما هم عليه، يدعوهم إلى نقلة بعيـدة ورحلـة طويلـة وتغيـير أساسـي في تصـوراتهم وفي أوضـاعهم وفي نظـامهم وفي أخلاقهم، فالنـاس يحبون أن يعرفوا من الداعية أين هم من الحق الذي يدعوهم إليه "لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ" وحين يجمجم صاحب الدعوة، ويتمتم ولا يبين عن الفـارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يـدعوهم إليـه من الحـق، وعن الفاصـل بين حقه وباطلهم، حين يفعل صاحب الدعوة هذا مراعاة للظروف والملابسات وحـذرًا من مواجهة الناس بواقعهم الذي يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصـوراتهم فإنـه يكـون قد خدعهم وآذاهم لأنه لم يعرفهم حقيقة المطلوب منهم كله وذلك فوق أنـه يكـون لم يبلغ ما كلفه الله تبليغه] أ.هـ [1].

ثم يقول عقب ذلك مباشرة :

---

[1] **طريق الدعوة في ظلال القرآن، جـ 1، ص 91ـ92.**

[2] **المرجع السابق.**

[ولقد ينظر بعضنا اليوم مثلاً فيرى أن أهل الكتاب هم أصحاب الكثرة العددية وأصحاب القوة المادية، وينظر فيرى أصحاب الوثنيات المختلفة يُعدون بمئات الملايين في الأرض وهم أصحاب كلمة مسموعة في الشئون الدولية، وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية ذوي أعداد ضخمة وأصحاب قوة مدمرة وينظر فيرى الذين يقولون إنهم مسلمون ليسوا على شيء لأنهم لا يقيمون كتاب الله المنزل إليهم فيتعاظمه الأمر ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحق الفاصلة، ويرى عدم الجدوى في أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شيء وأن يبين لهم الدين الحق، وليس هذا هو الطريق.

إن الجاهلية هي الجاهلية ولو عمت أهل الأرض جميعًا وواقع الناس كله ليس بشيء ما لم يقم على دين الله الحق ـ وواجب صاحب الدعوة هو واجبه لا تغيره كثرة الضلال ولا ضخامة الباطل، فالباطل ركام وكما بدأت الدعوة الأولى بتبليغ أهل الأرض قاطبة : أنهم ليسوا على شيء، كذلك ينبغي أن تستأنف، وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الله رسوله] أ.هـ[2].

ويقول رحمه الله :

[وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم، وما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ثم طال عليهم الأمد "فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ" (الحديد 16)، وأنه ليس هناك أنصاف حلول ولا التقاء في منتصف الطريق ولا إصلاح عيوب ولا ترقيع مناهج إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان الدعوة بين الجاهلية والتميز الكامل عن الجاهلية "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ".

ولو ذهبنا لتتبع ما كتبه الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـــ في هذا الشأن لطال النقل، ولكن نكتفي بهذا القدر وعلى من أراد المزيد فعليه بظلال القرآن.

وعلى العموم فهذا الذي ذهب إليه الأستاذ محمد قطب مخالف لصريح نص القرآن الكريم والذي يقول عز من قائل : "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ" (يونس 104).

قال الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله تعالى :

---

(2) طريق الدعوة في ظلال القرآن جـ 1، ص 93.

[فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم " يَا أَيُّهَـا النَّاسُ" إلى آخـره، أي إذا شـككتم في الدين الذي أنا عليه فدينكم الذي أنتم عليه أنا بريء منه، وقد أمرني ربي أن أكون من المؤمنين الذين هم أعداؤكم ونهاني أن أكون من المشركين الذين هم أولياؤكم.

وقال تعالى : " قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَـافِرُونَ * لا أَعْبُـدُ مَـا تَعْبُـدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِـدُونَ مَـا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ".

فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكفار " دينكم الذي أنتم عليه أنـا بـريء منـه وديـني الذي أنا عليه أنتم براء منه، والمراد التصريح لهم بـأنهم على الكفـر، وأنـه بـريء منهم ومن دينهم.

فمن كان متبعًا للنبي [illegible]] [illegible].[1]

[وفي ذكر جوابات عن إيرادات أوردها بعض المسلمين على أولاد شـيخ الإسـلام محمد بن عبد الوهاب فأجابوا عنها ـ رحمهم الله وعفا عنهم ـ فمن ذلك :

ما قولكم في رجل دخل هذا الـدين وأحبـه، لكن لا يعـادي المشـركين أو عـاداهم ولم يكفرهم أو قال : أنا مسلم ولكن لا أسـتطيع أن أكفـر أهـل لا إلـه إلا اللـه ولـو لم يعرفوا معناها[2].

ورجل دخل هذا الدين وأحبه ولكن يقول : لا أتعرض للقباب وأعلم أنها لا تنفـع ولا تضر ولكن لا أتعرضها ؟

فالجواب :

إن الرجل لا يكـــون مســـلمًا إلا إذا عـــرف التوحيد ودان به وعمل بموجبه وصـدق الرسـول ﷺ فيما أخـبر بـه، وأطاعه فيما نهى عنه وأمر بـه، وآمن به وبما جاء به، فمن قـال : لا أعـادي المشـركين أو عـاداهم ولم يكفـرهم، أو قال : لا أتعرض لأهل لا إله إلا الله ولو فعلوا الكفر والشرك وعادوا دين الله.

أو قال : لا أتعرض للقباب فهذا لا يكون مسلمًا، بل هو ممن قـال الله : (وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِـكَ سَـبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً) (النساء 150ـ151).

والله سبحانه أوجب معاداة المشركين ومنابذتهم وتكفيرهم فقال : " لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ" (المجادلة 22).

---

[1] **مجموعة التوحيـــد، الرسالة الثانية عشر، المســألة الرابعــة، إظهار الديـــن، ص 284، نقول ولماذا لا يكون قد أمرهم بالهجرة خلاصًا من الاضطهاد للعيش في سلام تحت ظل ملك مسيحي "لا يظلم عنده أحد"، كما قال الرسول.**

[2] **وهي الشبهة المعتبرة عند الأستاذ محمد قطب.**

وقـال تعـالى : " وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة 51).

وقال تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَـدُوَّكُمْ أَوْلِيَـاءَ تُلْقُـونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ" (الممتحنة 1)].

* * *

إن كلام الشـهيد سـيد قطب يصـور هنـا تصـويرًا تامًـا جريـرة النظـرة الأحاديـة المصمتة التي لا ترى إلا نفسها، ولا تقبل من غيرها عدلاً ولا صـرفًا ولا عـذرًا ولا حجـة، بل هي لا تعترف بالآخر أصلاً كأن لديها ميثاقاً من اللـه أنهـا هي ممثلـة الهدايـة الإلهيـة وغيرها هي الضلالة، ولا تقدير لزمان أو مكان، ولا تقدير للعوامل العديـدة الـتي تتحكم في المجتمعات، ولا في السُـنن التي وضعها الله تعالى للعالم ليكـون متعـددًا مختلفـاً، إن لم تربط بينه روابط العذر والتقدير والمحبة فلا أقل من ألا توجد العداوة والشـنآن، لأن الله تعالى عندما شاء أن يكون الناس أمة واحدة، وعندما أوجد الأديان فـإن معـنى هذا أنه ارتضى لهم التعايش والسلام ومن غير المعقول أنه رفض أن يكون الناس أمـة واحدة ليحارب بعضـهم بعضًـا ويكـره بعضـهم بعضًـا، وواقـع الحـال إن الـذين يؤمنـون باليهوديـة والمسـيحية والنحـل الأخـرى أكـثر من المسـلمين، فهـل يشـعل المسـلمون عليهم الحـرب كمـا يريـد سـيد قطب.. ؟ وقـد اعـترف اللـه تعـالى أن المسـلمين "وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" وتحدث عن هؤلاء وغيرهم، وعندما أوكـل إليـه وحـده الفصل بين الأمم فإنـه اسـتبعد أن يقـوم النـاس بهـذه المهمـة وأن يتبـادلوا الاتهامـات بالكفر والفسوق.

إن الله الذي أنزل الإسلام وأرسل محمدًا هو نفسه الـذي أنـزل اليهوديـة، وأنـزل المسيحية، وأرسل إبـراهيم وموسـى والمسـيح، وإذا كـان الأمـد قـد طـال بأهـل هـذه الديانات فقست قلوبهم، وحرفوا الكلم عن مواضعه، إما عمدًا لتحقيق مصالح وحقـوق للمؤسسة الدينية على حساب الدين المنزل، أو خلال الترجمات المتوالية، واحـدة بعـد أخرى، أو بتأثير الانشقاقات فيما بينها، فإن هذا كله لا يعـني عـدم الاعـتراف باليهوديـة والمسيحية، لأن ما حدث يمكن أن يحدث لكل الأديان، وقد حرف في الإسلام بالنسـبة للسُـنة، ولولا الظروف الخاصة بالإسلام وأن أمة العرب تعتمد على ملكة الحفـظ، وإن القرآن قد كتب بعد أقل من خمسة عشر عامًا من وفاة الرسول ﷺ، لكان من المحتمل أن يحدث له ما حدث للتوراة والإنجيل، وبعـد هـذا كلـه فنحن لسـنا مكلفين بـأن نقـوم بهداية قسرية لأن هذا في حد ذاته مفارقة غير مقبولـة، فالهدايـة هي انشـراح صـدري وتقبل رضائي وطوعي، وقد أكد القـرآن مـرارًا أن الرسـول ﷺ لا يملـك وحـده الهدايـة، "إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ"، وأن هناك من لا يتقبلون الهداية وعاتبه عتابًـا شـديدًا عنـدما ألح على قادة قريش أملاً في هدايتهم وتـرك الأعـرابي الضـرير الفقـير، فقـال "عَبَسَ

وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى" (عبس 1ـ6)، وتأمل مدى الحسم والقوة في قول القرآن للرسول ـ وهو صاحب الدعوة ـ " وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى " فأين هذا من أقزام يريدون أن يفرضوا الإيمان على الناس فرضًا.

والمسلم النمطي هو الذي يتقبل المجتمع كما أراده الله، والمسلم الشاذ هو الذي يريد أن يصلح المجتمع كما يراه هو كأنه أوتي البينة والمقدرة، غير عالم أنه يعمل على خلاف ما أراده الله أن يعمل، وأنه حمَّل نفسه ما لم يُحمِّلْه الله، ونصب نفسه نبيًا جديدًا يسلق مخالفيه بلسان حديد ويشهر في وجوههم السيف، وما هذه خلائق الأنبياء.

لقد ذكرنا الله تعالى أكثر من مرة "عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ"، وأن هذه أمم قد خلت ولا تسألون عما كانوا يفعلون فما هذا الشنآن الحاد والاتهام الكاسح لكل المجتمعات في العالم (إسلامية أو غير إسلامية) ؟ وادعاء إنقاذها من حكم نفسها وهدايتها إلى الحاكمية الإلهية، ؟ نفسه ما جعل جفاة العرب من الخوارج الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان يدعون عليًا بن أبي طالب إلى الإيمان ظانين أنهم أقرب إلى الله منه، وهيهات هيهات.

إنها نوع من البرانويا الدينية.

والغريب أن الأستاذ سيد قطب بعد أن رفعنا ببلاغته وإيمانه وحديثه الرائع عن عالمه الذي يختلف عن العالم الذي يعيش فيه المسلمون، ووصمه بأنه جاهلية.

نقول إنه لا يأتينا بأي تجديد معين للمجتمع المنشود، وعندما فعل، فإنه انحط بنا إلى درك الأرض وعاد إلى ما قرره الفقهاء أنفسهم، هؤلاء الفقهاء الذين صب عليهم لعناته، فبعد تطويحاته في سماواته قال :

"ودين الله ليس غامضًا ومنهجه للحياة ليس مائعًا فهو محدد بشطر الشهادة الثاني "محمد رسول الله" فهو محصور فيما بلغه رسول الله ﷺ من النصوص في الأصول، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مع النص، فإن لم يكن هناك نص، فهنا يجيء دور الاجتهاد، ومن أصوله المقررة في منهج الله ذاته، لا وفق الأهواء والرغبة، " فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ " (النساء : 59).

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ـ ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة ـ فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه هذا شرع الله،.. إلا أن تكون الحاكمية العليا لله، وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي بشر" انتهى.

فإذا كان هذا هو دين الله ومنهجه في الحياة على ما قال فإن كل الفقهاء المسلمين السلفيين يقولونه، وليس فيما جاء به أي تجديد.

بل من الفقهاء من عرضوا القضية بأفضل من هذا.

والنتيجة العملية : أن ليس في كل الحماسة والعاطفة والثورة أي إضافة أو تجديد عن المذهب الإسلامي التقليدي.

وقد يسأل سائل : إذا كان الأمر كذلك فلماذا ننقد فكره ؟

السبب : أنه لم يشر إلى هذا التطبيق إلا خلال عشرة سطور وسط مائتي صفحة، وأما الباقي كله فكلام يوحي بأن تطبيق الحاكمية غير ذلك البتة.

وإلا فلماذا لم يكف نفسه مؤونة الحديث الطويل، إذا كانت النهاية هي هذه النتيجة.

إن "الحاكمية الإلهية" لأنها "شعار" و "تجريد" يمكن أن توحي بما هو أكثر، بل بما هو خلاف ما انتهت إليه، عندما اضطر للحديث عن الفحوى والمضمون.

وعمليًا فإن كلمة "الحاكمية الإلهية" كانت وراء استغلال الدهاة، وضلال السذج، فقد استغلها أدهى الدهاة عمرو بن العاص عندما رفع المصاحف على أسنة الرماح ليعلي باطل معاوية على حق عليٍّ، وانخدع بها الخوارج فخذلوا عليًا وهو أتقى التقاة ومكنوا معاوية من الانتصار بحجة "لا حكم إلا لله"، حَكَّمْتَ الرجال في دين الله" !!

وعندما بُعِثَتْ هذه القالة في العصر الحديث تكررت المأساة واستغلها بعض الأفراد الأذكياء للسيطرة على شراذم من السذج وتحكموا فيهم.

لأن القالة لا تتضمن حدودًا عملية تحكمها.

وإذا كان الخوارج الذين أطلق عليهم القراء ـــ لمواظبتهم على قراءة القرآن، ومواصلة الصلاة ـــ انساقوا لقتل أحد الصحابة وبقر بطن زوجته، في الوقت الذي تورعوا فيه عن أكل رطبة ساقطة من نخلة !!! بدعوى هذه القالة، فليس من العجب أنها دفعت مهووسًا بها لأن يطلق مسدسه في عين أحد الشيوخ الأجلاء.

فإذا كانت الشعارات من نوع "الحاكمية الإلهية".. "العبودية لله" تكسب الجموع وتثير الحماسة فإنها عمليًا لا تعني إلا الضلال والانحراف عندما يأتي الأمر للتطبيق، ولو انتصرت دعوة سيد قطب رحمه الله لأوجدت أسوأ الطغاة الذين يفرضون ضيق الأفق والغباء والتعصب و "اللاعقل" على الناس جميعًا.

وإذا كانت "الحاكمية الإلهية" تعني : تحريم ما حرم الله، وتحليل ما أحل الله، والحكم بما أنزل الله، فمن الخير أن يقال هذا.

قد قالتها أم الدعوات الإسلامية في العصر الحديث "الإخوان المسلمون" في مقدمة شعاراتهم "الله غايتنا.. القرآن دستورنا.. الرسول زعيمنا".

* * *

ولنعد إلى السياق لنكتشف جانبًا جديدًا من جـوانب القضـية، فقـد انتقـد المؤلـف قول الأستاذ محمد قطب أن الناس على ثلاثة طوائف :

منهم الكافرون بلا شبهة.

ومنهم المؤمنون بلا شبهة.

والثالثة كثير من الناس تحيط بهم شبهة الجهل بحقيقة ما هو مطلــوب منهم على وجه اليقين.

ويقول : " ومن هنا لزم التعليم لإزالة هذه الجهالة قبل التصـدي لإصـدار الأحكـام على الناس ".

وركز المؤلف نقده لمقولة الأستاذ محمد قطب على كلمة "الجهالة" التي تلصــق بالطائفة الثالثة، وقال إن الجهل في القرآن لا يعطي معنى سلبيًا ولكن إيجابيًـا ويكـون بمعنى "معصـية"، وأن الجهالـة ليسـت عـذرًا ولكنهـا معصـية، وتقصـي المواضـع الـتي جاءت فيها كلمة الجهل وما يشتق منها في القرآن، وهي 24 مرة، ثم قال :

(ثبت على نحو القطــع واليقين إن الجهــل هو أصل كل فســـاد، وأن كل من ارتكب معصـــية لله فهو جاهل عامـــدًا أو مخطئًا عالمًا أو جاهلاً).

ولو فرضنا أن الجهالة معصية، فإن المعاصي لا تخرج عن الإيمان، وحديث أبي ذر عن الرسول عندما قال الرسول "إن كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة"، وقال أبو ذر وإن زنا وإن سرق، قال الرسول "وإن زنا وإن سرق"، فراجعه أبو ذر مرة أخرى وإن زنا وإن سـرق، فقـال الرسـول "وإن زنـا وإن سـرق وأنـف أبي ذر راغم" !

وهل رفض القرآن الكريم دعاء المؤمنين "رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا"، "لا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُــورٌ حَلِيمٌ"، وفيم جاءت الآيات العديـدة عن "التوبـة"، ومـا هـذا التشـدد والتعنت وابتغـاء العـثرات والأخطاء ؟ والله تعالى لا يتقبل التوبة فحسب، بل يبدل سيئات التائبين حسنات مهمــا عظمت " وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَنْ تَـابَ وَآمَنَ وَعَمِـلَ عَمَلاً صَـالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَـدِّلُ اللَّهُ سَـيِّئَاتِهِمْ حَسَـنَاتٍ وَكَـانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً" (الفرقان 68 ــ 70).

إن ما جعل المؤلف يلح في هذه النقطة ويعطيها أهمية كبرى هو أنه ربط ما بينها وبين العقيدة، فالمؤمن الـذي يـزني ويسـرق أفضـل من المـؤمن الـذي يمس عقيدتـه

"بجهالة"، لأنها قضية العقيدة، ويستطرد فينقل مـا كتبـه الشـهيد سـيد قطب في هـذه النقطة.

[وبعض المترفقين بالناس اليـوم يتلمسـون لهم عـذرًا في أنهم يجهلـون مـدلول كلمة (دين الله)، ومن ثم لا يصرون ولا يحاولون تحكيم شريعة الله وحدها بوصفها هي الدين، وأن جهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهلين مشركين.

وأنا لا أتصور كيف أن جهل الناس بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين.

إن الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها.

فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها ؟

وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداء مدلولها.

إن هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة أو يخفـف عنهم العـذاب فيهـا ويلقى بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يعلمـونهم حقيقـة هـذا الـدين وهم يعرفونهـا ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها لله، والجدل في الجزاء الأخروي لأهـل الجاهليـة عامـة ليس وراءه كبير طائل وليس هو الذي يعنينا نحن البشر الـذين نـدعو إلى الإسـلام في الأرض.

إن الذي يعنينا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم.

إنه ليس دين الله قطعًا، فدين اللـه هـو نظمـه وشـرعه وفـق النصـوص القرآنيـة الصريحة، فمن كان في نظام الله وشـرعه فهـو في (دين اللـه)، ومن كـان في نظـام الملك وشرعه فهو في (دين الملك) ولا جدال في هذا.

والذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين.

لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية، والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسـية لا يمكن عقلاً وواقعًـا أن يكـون معتقـدًا بـه، إذ الاعتقـاد فـرع من الإدراك والمعرفـة، وهـذه بديهيـة وخـير لنـا من أن نـدافع عن النـاس وهم في غـير دين اللـه، ونلتمس لهم المعاذير، ونحاول أن نكـون بهم أرحم من اللـه الـذي يقـرر مـدلول دينـه وحدوده، خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريـف النـاس حقيقـة مـدلول (دين اللـه) ليدخلوا فيه أو يرفضوه، هذا خير لنا وللناس أيضًا، خير لنا لأنـه يعفينـا من تبعـة ضـلال هؤلاء الجاهلين بهذا الدين الذي ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة.

وخير للناس لأن مواجهتهم بحقيقة ما هم عليه ــ وأنهم في دين الملك لا في دين الله ــ قد تهزهم هزة من الجاهلية إلى الإسـلام، من دين الملـك إلى دين اللـه، كـذلك

فعل الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وكـذلك ينبغي أن يفعـل الـدعاة إلى اللـه في مواجهة الجاهلين في كل زمان ومكان] أ.هـ [1].

[إن التلطف في دعوة الناس إلى الله ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية، لا في الحقيقة التي يبلغهم إياهـا، إن الحقيقـة يجب أن تبلـغ إليهم كاملـة، أمـا الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة ويرتكز على قاعـدة الحكمـة والموعظـة الحسـنة] أ.هـ[2].

[إن سفور الكفـر والشـر والإجـرام ضـروري لوضـوح الإيمـان والخـير والصـلاح، واستبانة سـبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات.

ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم تـرد غبشًـا وشـبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم، فهما صفحتان متقابلتان وطريقان مفترقـان، ولابـد من وضوح الألوان والخطوط.

ومن هنـا يجب أن تبـدأ كـل حركـة إسـلامية بتحديـد سـبيل المؤمـنين وسـبيل المجرمين، يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سـبيل المجـرمين ووضـع العنوان المميز للمؤمـنين والعنـوان المميـز للمجـرمين في عـالم الواقـع لا في عـالم النظريات، فيعرف أصـحاب الـدعوة الإسـلامية والحركـة الإسـلامية من هم المؤمنـون ممن حولهم ومن هم المجرمون] أ.هـ

ويقول رحمه الله :

[ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغـرة فيعكفـون عليهـا توسـيعًا وتمييعًـا وتلبيسًا وتخليطًا حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليهـا بالنواصـي والأقـدام تهمة تكفير (المسلمين) !!!

* * *

وانتقد المؤلف بما لا يقل شدة ما قاله الأستاذ محمد قطب :

[(أقـول إنـني أشـعر أننا اليـوم في مقـام التعليم قبل التصـدي لإصدار الأحكام على النـاس، وأنه يجب أن نوجه اهتمامنا كله إلى تعليم النـاس ما جهلـوه من حقيقة الإسـلام وحقيقة لا إله إلا اللـه)، ورأى أن هذا القول غاية في الغرابة، ذلك أنه يُظهر أمر إجراء الأحكام الشرعية، كما لو كان متعارضًـا مع تعليم النـاس لهـذه الأحكـام ولأمر دينهم أو ما ينبغي أن يٌـدعوا إليـه، وهو يقـول : إننا اليـوم في مقـام التعليم قبل التصدي لإصدار الأحكام على الناس).

---

[1] **في ظلال القـــرآن حـ 4 ص 21، 22، وطريق الدعـــــوة في ظلال القـــرآن، ص 18ـ19.**

[2] **طريق الدعوة في ظلال القرآن، حـ 1، ص 92.**

ونحن والحق أحق أن يتبع نتأسى برسـول الله لا بغـيره فهل كـان رسول الإسلام بالأمس في قريش وفي مواجهة البشـرية الكـافرة كلها في مقام التعليم أم في مقام التصدي لإصدار الأحكام على الناس] ؟

نقول للمؤلف لقد أرسل الله الرسول بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه، دون أن يكون لـه من الأمـر شـيء، لأنـه ليس مسـيطرًا أو جبـارًا أو حـتى وكيلاً عنهم، وكما أن الهداية من الله فكذلك الحكم هو لله.

[ورد المؤلف على ما ذكره الأسـتاذ محمـد قطب من أنـه لا يمكن في الحقيقـة إصدار حكم يشـمل المجتمع كله، فالناس في هذا المجتمع فئـات كثيرة.

ثم يذكر الكافرين بلا شبهة.

والمؤمنين بلا شبهة.

وطائفة ثالثة غير متميزة السمات لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

يرد المؤلف :

هل عجزت الشريعة الـتي قـادت مجتمعـات الـدنيا كلها وأخضـعت حضارات فارس والـروم وغيرها وحكمت شـعوبًا وقبائل مئـات السـنين والله يقـول تعـالى ذكـره (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَـابِ مِنْ شَـيْءٍ) (الأنعـام : 38).

هل عجزت الشـريعة عن تحديـد معيـار إجـراء الأحكـام على المجتمعـات فـرادى وجماعات ؟ لا أعتقد، بدليل حديث العلماء الـذي نـاقش هـذه المسـألة في العديـد من المصنفات الفقهية والعلمية الشرعية التي أحكمتها فجعلتها مقننـة محافظـاً عليهـا من التحريف والتبديل خاصة وأنها مقيدة ومنضبطة قرآناً وسُنة ممـا لم يـدع مجـالاً لاعتبـار أحد ممن كتب فيها من علماء الأمة مضيفاً إليها شيئاً من الرأي أو الاجتهاد، وذلك على النحو الذي سنتناوله في حينه بإذن الله تعالى في هذه المقالة.

ثم الطامة الكـبرى في كلمـات الأسـتاذ محمد قطب لما قـال : (أما قضـية الـولاء والتناصر ــ على كل أهميتها في مجـال العقيـدة ــ فليس لها في أحوالنا الراهنة في مجتمعاتنا المضـطربة الحـائرة المفككة مـدلول علمي واقعي حـتى نشغل أنفسنا بتصنيف الناس من أجلها).

فجعل من قضـية الـولاء وهي الـركن الـركين لعقيـدة التوحيد قضـية نظرية ليس لها مدلول عملي واقعي في الواقع المعاصر.

وبالتالي ــ حسبما أورد ــ لا نشغل أنفسنا بتصنيف الناس من أجلها.

وهذا الكلام هو تبديل حقيقي لشريعة القرآن الكريم وعقيـدة الأنبيـاء والمرسـلين والتي بعثـوا من أجلها وقـاتلوا بمن أطـاعهم من خـالفهم من أجلهـا، بـل والأدلـة على ذلك في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى وهي مجتمعة تنبه على أساسيات التطـبيق الواقعي لعقيدة التوحيد التي التزمها أتباع المرسلين].

فهي تأمر بموالاة المؤمنين، يقول تعالى ذكره :

- "إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا" (المائدة 55).
- "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" (التوبة 71).

وتنهي عن تولي الكافرين :

- "وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة 51).
- "وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ" (المائدة 81).
- "لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ" (المجادلة 22)
- " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ " (التوبة 23).

وتأمر الآيات بوجوب البراءة من الشرك والمشركين :

- "بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ" (التوبة 1)
- "أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ" (التوبة 3)].

* * *

وينتقد المؤلف ما قاله الأستاذ محمد قطب :

[ولكن حين نلقى جانبًا قضية الحكم على الناس في الوقت الحاضر ينبغي أن نوجه اهتمامنا كله إلى تعليم الناس ما جهلوه من حقيقة الإسلام وحقيقة لا إله إلا الله][1].

والله ما ندري ما وجه التعارض بين القيام بمهمة تعليم الناس ومسألة تمييز حكمهم الشرعي سوى أن مثلي ومثله مثل الطبيبين الذين حضرا أمام المريض الممدد.

فأقول : يجب تشخيص المرض لتوصيف العلاج المناسب لحالته، فيقول : بل يجب علاجه أولاً ودع عنك توصيف المرض ــ الآن ــ أو تشخيصه.

فهل كان تشخيص المرض منافيًا للعلاج ؟ أم كان تضييعًا للوقت فيما لا طائل من وراءه ؟

أرى والله أعلم أن تشخيص المرض هو أول خطوات العلاج الناجح بلا شك، بل إن العقل يتفق والنقل في هذا تمام الاتفاق.

[1] **واقعنا المعاصر، ص 45.**

نقول : إن الأستاذ محمد قطب قد شخص المرض بالفعل وهو جهل حقيقة الإسلام ووصف العلاج، وهو تعليمهم ما جهلوه، ولكن لا يرى إلا ما في ذهنه.

* * *

وينتقل المؤلف إلى نقطة هامة هي طريقة الحكم على الناس إسلامًا وكفرًا فيقول :

والواقع أن إجراء الحكم على الناس ــ إسلامًا أو كفرًا ــ قد ضبطهما الشرع الشريف بضابط محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقد تمثل هذا الضابط في أمور ثلاثة لا رابع لها وهي :

(1) النص.　　　(2) الدلالة.　　　(3) التبعية.

(1) والنص هو ما تسمعه من المرء : فإن كان إسلامًا وتوحيدًا، إيماناً بالله وكفرًا بالطاغوت فهو المسلم المتبع لرسول الله [illegible] أو التسليم لهم أو الانتصار لهم بالقول والدعوة إلى الدخول في طاعتهم وتعظيمهم أو دعاء غير الله أو النذر لهم أو ما شاكل ذلك من أنواع الشرك فهو المشرك الكافر بصريح نص القرآن الكريم والسُنة المطهرة.

(2) والدلالة ويقصد بها حال المرء أو أفعاله، فإنك إن لم تسمع منه إسلامًا أو كفرًا فإن حاله أو فعله يشهد له فإن كان إيماناً وإسلامًا متمثلاً في موالاة المؤمنين والبراءة من الشرك والمشركين ومعاداتهم والدعوة إلى ذلك فهو المؤمن.

أما إن كان حاله حال المشركين من تعظيم الطواغيت ومتابعتهم والتوجه بشيء من الشعائر أو النسك لهم أو التحاكم إليهم أو موالاتهم فهو المشرك الواجب البراءة منه ومعاداته.

ولما كان المؤلف كأي وهابي يعلق أهمية كبيرة على هذه النقطة فإنه استشهد بخمسة أدلة ليس فيها دليل واحد يحقق ما أراد، فاستشهد بالآية الخامسة من سورة التوبة، واستشهد بكل الأحاديث التي جاء فيها "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"، لأن فيها إن من ترك الصلاة أو الزكاة وسائر الفرائض مستحلاً كفر ومن ترك السُنن متهاوناً فسق، ومن ترك النوافل لم يخرج إلا أن يجحد فضلها فيكفر لأنه يصير رادًا على الرسول عليه السلام ما جاء به وأخبر عنه.

وواضح أن هذا تعسف في معالجة أمر التكفير، على أن لدينا تحقيقاً لمائتي رواية لهذا الحديث "أُمرت أن أقاتل الناس.. الخ"،لم تخل واحدة فيها من مقال، وأدعو الله تعالى أن ييسر لي نشرها.

* * *

الاقتباسات السابقة التي عرضناها من كتاب الأستاذ عبد الرحمن شاكر نعم الله في نقده لكتاب الأستاذ محمد قطب في واقعنا المعاصر تقدم لنا الولاء والبراء جزءًا من العقيدة، وليست هي الوحيدة، بل سنعرض لآراء أخرى تمثل إضافة، أو تأكيدًا وتركيزًا على هذه النقطة، ونرى أن هناك من لا يقل حماسة وغلوًا وتشددًا عن مؤلف "ملاحظات على كتاب محمد قطب".

وقد قرأت مقالاً طويلاً، افتتاحية مجلة البيان التي تصدر في السعودية بقلم الأستاذ د. ماهر ياسين الفحل (عدد أكتوبر 2006) تحت عنوان "المفهوم التطبيقي لكلمة التوحيد"، وهو يرى أن أصل الرسالة المحمدية هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وهي كما يقول ابن القيم :

(لأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى مؤمنين وكافرين، والأبرار والفجار، وأسست الملة، ولأجلها جردت السيوف للجهاد، وهي حق الله على جميع العباد).

هذه الكلمة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول علمًا، والتصديق به عقدًا، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبة وخضوعًا، والعمل به باطناً وظاهرًا، وكماله في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء لله، والمنع لله، والطريق إليه تجريد متابعة رسول الله ظاهرًا وباطناً، فإن الحب في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان، وتحقيقهما في واقعنا هو المقياس السديد تجاه الناس بشتى أنواعهم، والحب في الله والبغض في الله هما الحصن لعقائد المسلمين وأخلاقهم أمام تيارات التذويب والمسخ كزمالة الأديان، والنظام العالمي الجديد، والعولمة.

والحب والبغض في الله متفرعان عن حب الله، وهذا ما نسميه مختصرًا بـ (الولاء والبراء)، فالولاء والبراء من مفاهيم (لا إله إلا الله) ومقتضاها، وهما التطبيق الواقعي لهذه العقيدة، وهما مفهوم عظيم في حس المسلم بمقدار وعظمة هذه العقيدة.

"فأصل المولاة : الحب، وأصل المعاداة : البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة : كالنصرة والأنس والمعاونة، وكالجهاد والهجرة ونحو ذلك من الأعمال، ولن تتحقق كلمة التوحيد في الأرض إلا بتحقق الولاء لمن يستحق الولاء، والبراء ممن يستحق البراء.

قال تعالى : "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ" (التوبة 23) وقال تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ" (الممتحنة

1)، وقال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة 51)، وقال تعالى "تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ" (المائدة 80ـ81)، فالإنسان لا يستقيم إسلامه ولو وحد اله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين، كما قال تعالى "لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ" (المجادلة 22)، هذه الكلمة العظيمة بكل مفاهيمها ومقتضياتها قد غابت عن حس الناس اليوم إلا من رحم الله، وحسب بعض الناس جهلاً أو قصدًا أن هذا المفهوم العقدي الكبير يندرج ضمن القضايا الجزئية أو الثانوية، ولكن حقيقة الأمر بعكس ذلك.

وفي وقتنا الراهن نجد أن لهذا المفهوم الجليل من مفاهيم (لا إله إلا الله) مناسبة خاصة يفرض علينا واجب الوقت الحتمي مضاعفة المجهود في ترسيخه لدي المسلمين، وتبيينه أشد البيان وأوضحه، فأمتنا الإسلامية تمر بأشد أوقاتها عسرًا واستضعافاً، وقد تكالبت عليها الأمم الكافرة من كل حدب وصوب بما لم يسبق له نظير في سالف تاريخها، واجتالت بقضها وقضيضها، وحدها وحديدها الأخضر واليابس، ووطئت المدن والقرى والبوادي، واختلط أعداء الله بالمدنيين وغيرهم، ونشأ عن ذلك مصالح وتعاملات، وبدأت تبرز دعوات مشبوهة كثيرة تنادي بالإخاء، والمساواة، والاتحاد بين الأمم على اختلاف مساربها وعقائدها وأهدافها، مع احتفاظ كل ذي دين بدينه، شريطة أن يكون ديناً (كهنوتيًا) لا صلة له بالحياة، وللأسف الشديد انساق كثير من المسلمين وراء هذه الدعوات، وغاب عنهم المفهوم العقدي للولاء والبراء وراء هذه الدعوات، وربما تعاون بعضهم مع المحتل، وسيروا له أموره تحت شعارات "إننا نتعامل.. لا نتعاون"، وهذه الدعوات تشبه دعوى المنافقين المذكورين في قوله تعالى "فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ" (المائدة 52)، وقد انكشف للقاصي والداني زيف هذه الشعارات وعوارها ؛ فهم بين مخدوع وضال نسي أو تناسى أن الأصل هو الاتباع لا الابتداع، وأن الفلاح والصلاح والرشاد إنما بسلوك خطى من سلف، فضلاً عن أنه دين وعقيدة وتشريع.

مما تقدم عُلِم ضرورة هذا المفهوم من مفاهيم (لا إله إلا الله)، فالإنسان لا يستقيم إسلامه ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين، و (لا إله إلا الله) معناها لا معبود بحق إلا الله، وبذلك تنفي الألوهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده، وليس للقلب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذه حقيقة (لا إله إلا الله)، فـ (لا إله إلا الله) ولاء ونفي وإثبات، ولاء لله ولدينه وسُنة نبيه وعباده الصالحين، وبراء من كل طاغوت عبد من دون الله.

قال تعالى : "لا إِكْرَاهَ فِي الـدِّينِ قَـدْ تَبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُـرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُــرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَـــامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (البقرة 256)، ولما كان أصل المولاة : الحب، وأصل المعاداة البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة : كالنصـرة والأنس والمعاونـة، وكالجهاد والهجرة ونحو ذلك فإن الولاء والبراء من لوازم (لا إلـه إلا اللـه)، وأدلـة ذلـك كثيرة من الكتـاب والسُــنة قـال تعـالى "لا يَتَّخِـذْ الْمُؤْمِنُـونَ الْكَـافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِـكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَـيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُـوا مِنْهُمْ تُقَـاةً وَيُحَـذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ" (آل عمران 28)، وقد روي الإمام أحمد في مسنده من حديث جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله بايعه على أن "تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر" (مسند أحمـد 4/357)، وقـال النـبي "أوثـق عـرى الإيمـان الحب في اللـه والبغض في الله" (مسند أحمـد 4/286)، وقـال النـبي "من أحب في اللـه وأبغض في الله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان" (أحمد والنسـائي والـبيهقي)، وقـال رسول الله : "لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامـك إلا تقي" (أبـو داود)، ممـا تقـدم عُرف أن الولاء والبراء عقيـدة وأصـل من أصـل الـدين، وأنـه لا نصـرة ولا مـوالاة مـع الكفار البتة، وأنهما ليسا بالأمر الجزئي كمـا يصـورهما بعضـهم ويتهـاون فيهمـا بأعـذار شتى، فبعضهم حصل له تلبيس وقلب للمفاهيـــم، فتجـد بعض النـاس إذا تحـدثت عن الحب في الله والبغض في الله، قال : هذا يؤدي إلى نفرة الناس، ويـؤدي إلى كراهيـة الناس لدين الله ـــ عـز وجـل ـــ يقـول ابن القيم ـــ رحمـه اللـه ـــ عن مكائـد النفس الأمارة بالسوء : "إن النفس الأمارة بالسوء تـرى صـاحبها صـورة الصـدق، وجهـاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلـق وأذاهم وحـربهم، وأنـه يعـرض نفسه للبلاء ما لا يطيق، وأنه يصير غرضًا لسهام الطاعنين، وأمثـال ذلـك من الشـبه"، وقد نسي هؤلاء قول الله تعـالى "أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَـافٍ عَبْـدَهُ وَيُخَوِّفُونَـكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِـهِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" (الزمر 36)، وقوله تعالى "وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُـلِّ شَـيْءٍ قَـدْراً" (الطلاق 3)، فالنـاس يقعـون في المداهنة والتنازلات في دين الله ــ عز وجل ــ باسم السـماحة، ولا شـــك أن هـذا من التلبيس، خاصة إذا عُلم أن من لوازم هــذا الأمر أن يظهر على جـوارح المـرء، فلا يستقيم لإنسـان يدعي أنـه يـوالي في اللـه، ويحب في اللـه، ويبغض في اللـه، وتجـده ينبسط وينصهر ويؤيد من أبغضه الله، فبغض أعداء الله من النصارى واليهـود وغـيرهم محله القلب، لكن يظهر على الجوارح لا أن يمـد يـده للكفـار من قـريب أو بعيـد ؛ بـل العكس عليه أن يجهر بمعاداة أعداء الله، وإظهار بغضهم ومنابذتهم بالسـنان واللسـان والجنـان مـا اسـتطاع إلى ذلـك سـبيلاً، وعـدم التعـاون معهم، وعـدم المشـاركة في أعيادهم، يقول الله تعالى "وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ" (الفرقان 72)، والـزور كمـا قـال بعض المفسرين هو : أعياد المشركين، ولهذا تجد أهل العلم في غاية التحذير من هـذا الأمر حتى إن بعض علماء الأحناف قال "من أهـدى لمجوسـي بيضـة في يـوم النـيروز فقد كفر"، بل ولا يجوز بدءهم بالسلام، قال رسول الله "لا تبدؤوا اليهـــود والنصـارى

بالسـلام، فـإذا لقيتم أحـدهم في طريـق فاضـطروه إلى أضـيقه" (رواه مسـلم)، ولا التشبه بهم فيمـا هـو من خصائصـهم من أمـور الـدنيا : كـالأخلاق، والملبس، وطريقـة الأكـل والشـرب، وعـاداتهم الخاصـة الأخـرى أو أمـور الـدين كالتشـبه بشـعائر دينهم وعباداتهم، أو ترجمة كتبهم وأخذ علومهم برمتهـا من غـير تمحيص ومعرفـة وتنقيـة، أو استعارة قوانينهم ومناهجهم في الحكم والتربية والعمل بهـا، وإلـزام النـاس عليهـا، ولا يجـوز الـترحم عليهم، ولا مـداهنتهم ومجـاملتهم ومـداراتهم على حسـاب الـدين، أو السـكوت على مـا هم عليـه من المنكـر والباطـل، قـال اللـه تعـالى "وَدُّوا لَـوْ تُـدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ" (القلم 9)، وقال "وَلا تَرْكَنُـوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُـوا فَتَمَسَّـكُمْ النَّارُ وَمَـا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَـاءَ ثُمَّ لا تُنصَـرُونَ" (هـود 113)، ولا التحـاكم إليهم، أو الرضـى بحكمهم ؛ لأن متابعتهم يعني ترك حكم الله تعالى، قال تعالى "وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَـاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَـا لَـكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِـيرٍ" (البقـرة 120)، ولا تعظيمهم ومخاطبتهم بالسيد والمولى، قال رسول الله "لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيدًا فقد أسخطتم ربكم عز وجل"، وهذا هو الأصل في التعامل مع أعـداء اللـه، **وقد بين أهل العلم أن المؤمن تجب محبتـه وإن أسـاء إليـك، والكـافر يجب بغضـه وعداوته وإن أحسن إليك، وقـد أوجب اللـه معـاداة الكفـار والمشـركين، وحرم موالاتهم وشدد فيه، حـتى أنـه ليس في كتـاب اللـه حكم فيـه من الأدلة أكثر وأبين من هـذا الحكم بعـد وجـوب التوحيـد وتحـريم ضـده، ولا يستثنى من إظهار هذا** البغض والكره والمعاداة إلا خشية فـوت النفس أو تعـاظم المفاسد، ومعلوم أن الضرورات تقدر بقدرها، وبضابط الشرع لا الهوى كما يحصل في كثير من بلاد المسلمين وخاصة المحتلـة من الكفـار، ومـا يجـري الآن من تمـييع لهـذه العقيدة، وهذا الحد الفاصـل بين أوليـاء الرحمـان وأوليـاء الشـيطان وبتنظيم شـيطاني وأسلوب خبيث من محاولات لمحو هذا المفهوم من مناهج التعـليم حـتى وصـل الأمـر إلى المنابر، وعلى لسان أئمة السوء، أو من أطم الجهل عقلـه، أو من غـرر بـه فـاغتر وسار بركب من عتي وتجبر، وبدأ يبث هذا الزيغ بغطاء الدعوى آنفـة الذكر، ممررًا هذا المكر على بسـطاء النـاس ومن هم على شـاكلته، ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه العلى العظيم، قال أبو الوفاء بن عقيل "إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمـان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع ولا ضجيجهم في الموقف بـ : لبيـك، وإنمـا انظـر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة"، وقـد كـان الإمـام أحمـد ـ رحمـه اللـه ـ إذا نظـر إلى نصراني أغمض عينيه، فقيل له ذلـك، فقـال رحمه اللـه "لا أسـتطيع أن أنظـر إلى من افترى على الله وكذب عليه"، فانظر أخي المسلم كيـف كـان الإمـام أحمـد يغـار على الله من أن ينظر إلى من افترى وقال : إن لله ولدًا ـ تعالى الله عما يقول علوًا كبـيرًا ـ وقـارن بمن ذكرنـا سـابقاً ممن يتعامل ولا يتعـاون على حـد زعمـه، وقـال عمـر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في شأن النصـارى "أهينـوهم ولا تظلمـوهم، فـإنهم سـبوا الله تعالى أعظم المسـبة"، على ألا ننسـى أن هـذا الأمـر لا يحملنـا على الظلم ؛ فقـد

أمرنا الله تعالى بالعدل، حيث قال تعالى "لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الممتحنة 8)، ويقول في الحديث القدسي "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا"، كذلك من مقتضى الولاء والبراء الانضمام إلى جماعة المسلمين، وعدم التفرق عنهم، والتعاون معهم على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى :"وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً" (النساء 115)، وكذلك من مقتضى الولاء والبراء عدم التجسس على المسلمين، أو نقل أخبارهم وأسرارهم إلى عدوهم، وكف الأذى عنهم، وإصلاح ذات بينهم، قال تعالى "وَلا تَجَسَّسُوا" (الحجرات 12)، وكذلك نصرتهم، وأداء حقوقهم من عيادة مريض، واتباع جنائز، والرفق بهم، واللين والرقة والذل وخفض الجناح معهم، وأهل السُنة والجماعة يقسمون الناس في الموالاة إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : من يستحق الموالاة والحب المطلق ؛ وهم المؤمنون الخلص الذين آمنوا بالله تعالى ربًا، وبرسوله نبيًا، وقاموا بشعائر الدين علمًا وعملاً واعتقادًا قال الله تعالى : "إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ" (المائدة : 55)، وقال رسول الله "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا"، وقال "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه".

ثانياً : من يستحق الموالاة والحب من جهة، والمعاداة والبغض من جهة أخرى ؛ وهم عصاة المؤمنين : يحبون لما فيهم من الإيمان والطاعة، ويبغضون لما فيهم من المعصية والفجور التي هي دون الكفر والشرك.

ثالثاً : من يستحق المعاداة والبغض المطلق ؛ وهم الكفار الخلص الذين يظهر كفرهم وزندقتهم، وعلى اختلاف أجناسهم من اليهود والنصارى، والمشركين، والملحدين، والوثنيين، والمجوس، والمنافقين، أو من تبعهم من أصحاب المذاهب الهدامة، والأحزاب العلمانية.

ختامًا إخوة الإيمان نقول : عودة إلى فهم (لا إله إلا الله محمد رسول الله) الفهم الصحيح، كما فهمه رسول الله وأصحابه الأخيار، تحكيمًا لشريعة الله واتباعًا لما أنزله، وكفرًا بكل طاغوت، وبكل عرف، وبكل هوى، وبكل عادة أو تقليد تشرع للناس ما لم ينزل الله، عند ذاك وحسب يكون صلاح الدين والدنيا، وخير الآخرة والأولى، يقول شيخ الإسلام ابن تيميه "فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله ـ عز وجل ـ فيكون حبه لله ولما يحبه الله، ويبغضه لله ولما يبغضه الله، وكذلك موالاته ومعاداته"، هذا وبالله التوفيق، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

ونجد في كتابات الإمام ابن تيمية القول الصريح القاطع في قضية الولاء والـبراء، طبقاً لما جاء في كتاب "**الولاء والبراء في الإسلام**"[1] تـأليف محمـد بن سـعيد بن سالم القحطـاني الـذي أورده تحت عنـوان "عقيـدة أهـل السُـنة والجماعـة"، فجعلهم أخـوة مـع وجـود القتـــال والبغي، وأمـر بالإصـلاح بينهم، **[فليتدبر المـؤمن : إن المؤمن تجب موالاتـه وإن ظلمـك واعتـدى عليـك، والكـافر تجب معاداتـه وإن أعطاك وأحسن إليك، فإن اللـه سـبحانه بعث الرسـل، وأنـزل الكتب ليكون الدين كله للـه، فيكـون الحب لأوليائـه والبغض لأعدائـه، والإكـرام والثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه**.

وإذا اجتمع في الرجل الواحد : خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسُــنة وبدعـة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخـير، واسـتحق من المعـاداة والعقـاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كـاللص تقطع يده لسرقته، ويعطي من بيت المال ما يكفيه لحاجته، هذا هو الأصل الذي اتفــق عليه أهل السُـنة والجماعة، وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم[3].

ولما كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما أسـلفنا فيمـا سـبق فإن الناس في نظر أهل السنة والجماعة ـــ بحسـب الحب والبغض والـولاء والـبراء ــ ثلاثة أصناف :

الأول : من يحب جملـة، وهـو من آمن باللـه ورسـوله، وقـام بوظـائف الإسـلام ومبانيـه العظـام علمًـا وعملاً واعتقـادًا، وأخلص أعمالـه وأفعالـه وأقوالـه للـه، وانقـاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه ورسوله، وأحب في الله، ووالى في اللـه وأبغض في الله، وعادى في الله، وقدم قول رسول الله ﷺ على قول كل أحد كائناً من كان[3].

الثاني : من يحب من وجه ويبغض من وجه، فهو المسلم الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئاً، فيحب ويوالي على قدر ما معه من الخير، ويبغض ويعادي على قدر ما معه من الشر، ومن لم يتسع قلبه لهذا كان مـا يفسـد أكـثر ممـا يصـلح، وإذا أردت الـدليل على ذلـك فهـذا عبـد اللـه بن حمـار[4]، وهـو رجـل من أصـحاب رسـول الله ﷺ [illegible] : [illegible] "[illegible]"[5]، مـع أنـه ﷺ لعن الخمـر وشـاربها وبائعهـا وعاصـرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه[6].

الطبعة الثانية، دار النور الإسلامية، ص 137 وما بعدها.

انظر مجموع الفتاوى، 28/208 ــ 209.

إرشاد الطالب لابن سحمان، ص 13.

عبد الله بن حمار، هكذا أورده ابن سحمان والموجود في صحيح البخاري 12/75 أنه عبد الله، كان يلقب حمارًا، وقال ابن حجر : كان يهدي إلى النبي ﷺ ويضحكه في كلامه، انظر الإصابة 4/275 تحقيق البجاوي.

صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة 12/75 ح 6780.

سنن أبي داود، كتاب الأشربة 4/82 ح 3674، وابن ماجه في الأشربة 2/122 ح 3380، قال الألباني : صحيح، انظر الجامع الصغير 5/19 ح 4967.

الثالث : من يبغض جملة وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخـر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله بقضاء الله وقدره وأنكر البعث بعد المــوت، أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك بالله في عبادته أحـدًا من الأنبيـاء والأوليـاء والصالحين، وصـرف لهم نوعًـا من أنـواع العبـادة كـالحب والـدعاء، والخـوف والرجـاء والتعظيم والتوكـل، والاسـتعانة والاسـتعاذة والاسـتغاثة والـذبح والنـذر والإنابـة والـذل والخضوع والخشية والرغبة والرهبة والتعلق، أو ألحـد في أسـمائه وصـفاته واتبـع غـير سبيل المؤمنين، وانتحل ما كـان عليـه أهـل البـدع والأهـواء المضـلة، وكـذلك كـل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها[1].

فأهل السُـنة والجماعة ــ إذن ــ يوالون المـؤمن المسـتقيم على دينـه ولاءً كـاملاً ويحبونــه وينصــرونه نصــرة كاملــة، ويتــبرأون من الكفــرة والملحــدين والمشــركين والمرتدين ويعـادونهم عـداوة وبغضًـا كـاملين، أمـا من خلـط عملاً صـالحًا وآخـر سـيئاً فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان، ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر.

وأهل السُـنة والجماعة يتبرأون ممن حاد الله ورسوله ولو كـان أقـرب قـريب "لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ" (المجادلة 22).

ويمتثلون لنهيه تعالى في قوله : " لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْـوَانَكُمْ أَوْلِيَـاءَ إِنْ اسْـتَحَبُّوا الْكُفْـرَ عَلَى الإِيمَـانِ وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ * قُـلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـارَةٌ تَخْشَـوْنَ كَسَـادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَـادٍ فِي سَـبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـوا حَتَّى يَـأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ " (التوبة ــ2423)

ويلخص الإمام ابن تيميـة مـذهب أهـل السُــنة والجماعـة فيقـول : الحمـد والـذم والحب والبغض والموالاة والمعاداة إنما تكون بالأشـياء الـتي أنـزل اللـه بهـا سـلطانه، وسلطان كتابه، فمن كـان مؤمنـاً وجبت موالاتـه من أي صـنف كـان، ومن كـان كـافرًا وجبت معاداته من أي صنف كان.

ويرى المؤلف أن خطورة مـوالاة الكفـار تـبرز أن ضـررها على المسـلمين كافـة أعظم من خطر من يكفر في نفسـه فقـط، ذلـك أن (الإضـرار بالمسـلمين يزيـد على تغيــير الاعتقــاد، ويفعلــه من يظن ســلامة الاعتقــاد، وهــو كــاذب عنــد اللــه ورســوله والمؤمنين في هذه الدعوى والظن، ومعلوم أن المفسدة في هذا أعظم من المفسدة في مجرد تغيير الاعتقاد)[2]، وإليك صور موالاة الكفار] باختصار[3] :

---

[1] إرشاد الطالب، ص 19.

[2] الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية، ص 371.

[3] من أحسن من كتب في ذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأبناؤه، لذلك فمعظم هذه الصور منقولة من كتبه.

(1) الرضى بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مــذهب من مذاهبهم الكافرة[4].

(2) التولي العام واتخاذهم أعواناً وأنصارًا وأولياءً أو الـدخول في دينهم وقـد نهي اللـه عن ذلك فقال : " لا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُـوا مِنْهُمْ تُقَـاةً وَيُحَـذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَـهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ" (آل عمران 28).

(3) الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحـاكم إليهم دون كتـاب اللـه كمـا قـال تعـالى : "أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُـوا نَصِـيباً مِنْ الْكِتَـابِ يُؤْمِنُـونَ بِـالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَـــــبِيلاً" (النساء 55).

(4) مودتهم ومحبتهم، وقد نهى الله عنها بقوله : "لا تَجِـدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِرِ يُـوَادُّونَ مَنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ" (المجادلة 22).

(5) الركون إليهم، قال تعالى : "وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُـوا فَتَمَسَّـكُمْ النَّارُ وَمَـا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ" (هود 113).

(6) مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين، قال تعالى : " وَدُّوا لَـوْ تُـدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ" (القلم 9).

(7) اتخاذهم بطانـة من دون المؤمـنين، قـال تعـالى : "يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَتَّخِـذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْـوَاهِهِمْ وَمَـا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (آل عمران 118).

(8) طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به[1]، قال تعـالى ناهيًـا عن ذلـك : " وَلا تُطِـعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً" (الكهف 28).

(9) مجالستهم والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله، قال تعـالى في النهي عن مجالسـتهم : "وَقَـدْ نَـزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَـابِ أَنْ إِذَا سَـمِعْتُمْ آيَـاتِ اللَّهِ يُكْفَـرُ بِهَـا وَيُسْـتَهْزَأُ بِهَـا فَلا تَقْعُـدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُـوا فِي حَـدِيثٍ غَيْـرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ" (النساء 140).

(10) توليتهم أمرًا من أمور المسـلمين كالإمـارة والكتابـة وغيرهـا و (التوليـة شـقيقة الولاية)، لذلك فتوليتهم نوعًا من توليهم، وقد حكم الله أن من تولاهم فإنـه منهم، ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولايـة أبدًا.

(11) استئمانهم وقد خونهم الله، قال تعالى : "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَـارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِـدِينَارٍ لا يُـؤَدِّهِ إِلَيْـكَ إِلاَّ مَـا دُمْتَ عَلَيْـهِ قَائِمـاً ذَلِـكَ

---

(4) **انظر نواقض الإسلام في مجموعة التوحيد، ص 129، مطبعة الحكومة بمكة.**

(1) **انظر تفسير البغوي 1/409، وابن كثير 2/89.**

بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُـونَ عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُـونَ (آل عمران 75).

(12) الرضى بأعمالهم والتشبه بهم، والتزيي بزيهم[2].

(13) البشاشة لهم والطلاقة وانشراح الصدر لهم وإكرامهم وتقريبهم[3].

(14) معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم ويضرب القرآن لذلك مثالين هما : امـرأة لـوط التي كانت ردءًا لقومها، حيث كانت على طريقتهم، راضية بأفعالهم القبيحة، تـدل قومها على ضيوف لوط، وكذلك فعل امرأة نوح[4].

(15) مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم.

(16) تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم مثل : السادة والحكماء، ومبادأتهم بالسلام.

(17) السكنى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم.

(18) التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم والـدخول في أحلافهم وتنظيمـاتهم والتجسـس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم والقتال في صفهم[1]، وهـذه الصورة من أخطر ما ابتليت به أمتنا في هذا العصر ذلك أن وجود مـا يسـمى في المصطلح الحديث (الطابور الخامس) قد أفسد أجيال الأمة في كل مجـال سـواء في التربية والتعليم أم في السياسة وشـئون الحكم أم في الأدب والأخلاق أم في الدين والدنيا معًا، وصدق الشاعر محمود أبو الوفا فيما نقله عنه أستاذنا الفاضـل الشيخ محمد قطب أنـه قـال حين خـرج الاسـتعمار الإنجلـيزي من مصـر : (خـرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر) نعم إن داءنا هم الإنجليز السمر.

(19) من هرب من دار الإسلام إلى دار الحرب بغضًا للمسلمين وحبًا للكافرين

(20) من انخرط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية كالشيوعية والاشـتراكية والقوميـة والماسونية وبذل لها الولاء والحب والنصرة.

واستشهد المؤلف عن كل حالة بآيات وأحاديث عديدة.

وعُد من صور البراءة :

1 ــ البراءة من المشركين.

2 ــ منعهم من دخول المسجد الحرام.

3 ــ منع النكاح بالمشركات.

( ) **مجموعة التوحيد، ص 117.**

( ) **المرجع السابق.**

( ) **تفسير ابن كثير، 6/210.**

( ) **الإيمان.. حقيقته.. أركانه.. نواقضه للدكتور محمد نعيم ياسين، ص 147.**

4 ـ البراءة من أهل الكتاب.

5 ـ الـبراءة من المنـافقين ومن صـورها الإعـراض عنهم والغلظـة عليهم والنهي عن الصلاة عليهم وعدم الاستغفار لهم.

6 ـ قطع الموالاة مع الأقارب إذا كانوا محادين لله.

التكفير
وقاعدة (من لا يكفر الكافر فهو كافر)

ينتقل مؤلف "نظرات في واقع محمد قطب المعاصر" إلى النقطة التي تصل فيها قضية الولاء والبراء إلى خاتمتها، وهي تكفير من يوالي الكفار موالاة تمس العقيدة، ثم لا يقف عن هذا، بل أنه يبني عليها أن من لا يكفره فهو أيضًا كافر.

يقول المؤلف :

وحديثنا يتناول :

أولاً : أصل هذه القاعدة والدليل عليها.

ثانيًا : مناط تطبيقها في الواقع.

ثالثاً : مناقشة شبهات المخالفين لهذه القاعدة.

أولاً : أصل هذه القاعدة والدليل عليها :

وردت هذه القاعدة بلفظها في العديد من مصنفات العلماء[1] عند تناولهم لمسائل العقيدة ــ عقيدة التوحيد ــ وحديثهم عما يصير به المؤمن كافرًا أو مرتدًا.

ولكن الكثير منهم يذكرها دون ذكر الدليل عليها سوى لفظ (إجماعًا) مما أوقع في ذهن الكثير من القراء والباحثين الظن بأن هذه القاعدة ثابتة بإجماع الفقهاء لا بنص صريح في القرآن الكريم أو السُنة المطهرة، بالتالي لم تأخذ هذه القاعدة الحيز الصحيح للجانب العقائدي فيها وجُعل أن تجاهلها أو عدم الالتزام بها أمر لا يُعد مخالفاً لصريح النصوص، بل فقط لأقوال العلماء فلا يُفسد للود قضية، وهو فهم خاطئ مُفسد مناقض لمقتضى عقيدة التوحيد.

ذلك أنه من المعلوم أن مسألة الولاء لله ولرسوله هي الركن الركين لعقيدة التوحيد، وأن هذا الركن لا يكون إلا بالبراء من الشرك والمشركين وتكفيرهم ومعاداتهم[2].

غير أن الأمر الذي يجب الالتفات إليه والانتباه له أن رابطة الولاء تجمع بين المؤمنين بحكم إلهي لا دخل للأفراد فيه فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض شاءوا أم أبوا ؛ لأن ذلك تقرر بحكم وقضاء من الله عز وجل من فوق سبع سموات،

---

(1) **مثل القاضي عياض في كتاب الشفا، حـ 2، وابن تيميه ومحمد بن عبد الوهاب، ومصنفات من علماء نجد وردت بكتاب الولاء والبراء، وبغير ذلك كثير.**

(2) **يراجع البحث القيم "الولاء والبراء".**

ولذا فهم إخوة ولو كان بينهم ما بينهم من مشاحنات قد تصل بهم في لحظة ما إلى حد قتالهم بعضهم لبعض وإن كان ذلك فتنة لا يرضى عنها الله ورسوله.

"وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" (التوبة : 71) (3).

وقال تعالى : "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ" (التوبة : 71).

فالمؤمنون إخوة : "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا" (الحجرات : 9).

ولذا فإن القتال الذي وقع بين علي بن أبي طالب وأصحاب الجمل من أصحاب رسول الله لم يمنع أن يكون بعضهم أولياء بعض.

ولذا كان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه يصلي على قتلى الفريقين معًا.

وكذا القتال الذي وقع بين علي بن أبي طالب رحمه الله وأصحاب معاوية لم يمنع من وجود رابطة الولاء بين الفريقين لاجتماعهم على الإيمان بالله وحده، ومتابعة محمد البراءة من المشركين العرب والفرس والروم وسائر الملل.

وكذا ما وقع بين عبد الله بن الزبير وبني أمية وهكذا.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فالمشركون والكفار والملاحدة وسائر الملل الأخرى ـ سوى ملة الإسلام ـ بعضهم أولياء بعض بحكم وقضاء من الله عز وجل من فوق سبع سموات على نفس النحو حتى ولو كان بينهم من العداوة والبغضاء والحروب ما يكون، فبعضهم في عداوة الإسلام والمسلمين أولياء بعض.

فالله الذي قال :

"وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ" (البقرة : 113).

وقال :

"وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ" (البقرة : 113).

قال أيضًا :

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ" (المائدة :51).

وقال جل من قائل

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ"(الأنفال : 73).

ثم حذر تعالى من إغفال هذه المعاني فقال :

"إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ" (الأنفال : 73).

والولاء له مظاهر كثيرة عديدة معلومة (1).

() **يراجع أيضًا سورة الأنفال الآية 72 في نفس هذا المعنى الهام.**

() **يراجع الولاء والبراء في الإسلام.**

ولكن إذا كانت المحبة من الولاء، وإذا كانت النصرة والمتابعة من الولاء، وإذا كانت الطاعة والتشبه وما سوى ذلك من الولاء.

إلا أن أخطر مظاهر الولاء وأخطر صوره تتمثل في اعتقاد إسلام من حكم الله بكفره أو الشك في هذا الحكم ـ أي الشك في كفره ـ أو اعتقاد صحة مذهبهم حتى ولو لم يعتقد بطلان مذهب الإسلام ذلك أن الشهادة بالإسلام لمن حكم القرآن بكفره هو من قبيل توليه ذلك أنه باعتباره مسلماً فله ما للمسلمين وما للمسلمين أولها الولاء.

ولذا فمن المعلوم أن الشهادة بالإسلام ولاء كما أن الشهادة بالكفر براء، ولما كانت الشهادة من أبواب الولاء منعت شهادة غير المسلمين على المسلمين [1]، ومنع توليهم القضاء في ديار الإسلام، ولذا فإن الدليل على أن من لم يُكَفِّـر الكافر فهو كافر :

(1) هو كل الآيات التي تنص على النهي عن ولاية الكافرين.

(2) وجميع الآيات التي توجب البراءة من المشركين وعداوتهم وهي معلومة مشهورة.

وهذا المعنى انتبه إليه صاحب رسالة الولاء والبراء في الإسلام وبعد أن شرح الولاء والبراء ذكر من صور الولاء ـــ التي إذا صرفت إلى غير المسلمين من المشركين واليهود والنصارى أفسدت على المسلم عقيدته ـــ صورًا عديدة بلغت عشرين صورة كان أولها وأخطرها على الإطلاق الرضى بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة[2].

فجعل ذلك قبل التولي العام وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم ومحبتهم ونصرتهم.

ثانياً : مناط تطبيقها في الواقع.

من المعلوم أن عقيدة المسلم تتمثل في :

- أصل العقيدة ـ توحيد الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته.
- وأن لهذا الأصل سنن هو منهاج الفرقة الناجية أو مذهب أهل السنة والجماعة وهو ما اصطلح عليه العلماء بأصول الدين[3].

---

(1) **إلا في حالة محددة نص عليها القرآن الكريم في سورة المائدة الآية 106، وهي حالة السفر .**

(2) **الولاء والبراء في الإسلام، ص 234 .**

(3) **يراجع بحث حجة الله البالغة، الجزء الأول، للباحث عبد الرحمن شاكر نعم الله .**

ومن المعلوم أن المخالف لأصل هـذه العقيـدة قـد ورد النص القـاطع على كفـره على نحو علم أو اشتهر.

وأن المخالف في شيء من أصول اعتقاد السُـنة والجماعة كمن خالف في تأويل بعض صفات الرب تبارك وتعالى، أو كمن أنكر عذاب القـبر أو الحـوض أو الشـفاعة أو قال بخلق القرآن أو بأفضلية علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر رضي الله تعـالى عنهم جميعًا، أن هذا المخالف لم يرد النص القاطع الدال على كفره، ولـذا كـان تكفـير طوائف من هؤلاء محل اجتهاد واختلاف ـــ وبالتـالي ـــ العلمـاء مـع اتفـاقهم على أنهم جميعًا مبتدعون.

ولذا كان الحكم بالكفر على درجتين :

حكم بالكفر مبني على الأدلة القطعية الثابتة.

حكم بالكفر مبني على اجتهاد العلماء ومحل اختلافهم لعـدم قطعيـة الـدليل على كفر المخالف لشيء من أصول أهل السنة والجماعة.

وقاعدة من لم يكفـر الكـافر فهـو كـافر لا تشـمل هـذه الدرجـة الثانيـة المتعلقـة بتكفير طوائف من المبتدعة لشيء من أصول أهل السنة والجماعة وذلك لعدم قطعية النص بتكفيرهم أساسًا فضلاً عن تكفير من لم يكفرهم، وتطبيقًا لذلك فإن طوائف من العلماء لما اختلفوا في تكفير الجهمية أو الخوارج أو أشباههم لم يرجع علمـاء السـلف بتهمة التكفير على بعضهم البعض لذلك.

أما الحكم بـالكفر المبـني على الأدلـة القطعيـة المحكمـة فهـذا مـا لا يملـك أحـد مخالفته، ولذا كـان هـو موضـع تطـبيق قاعـدة من لم يكفـر الكـافر فهـو كـافر، وذلـك لسببين :

الأول : أن من لم يكفر الكافر المحكوم على نحو قطعي بكفره قد تولاه حيث قد علمنا أن الشهادة بالإسلام ولاء كما أن الشهادة بالكفر براء.

والله تعـالى يقـول : " وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ " (المائـدة : 51)، غـير أنـه يلاحظ أن هذا الكافر ـ سواء كان متمثلاً في فـرد بعينـه أو طائفـة ـــ والمحكـوم على نحو قطعي الدلالة والثبوت بكفـره قـد يكـون في الواقـع العملي في هيئـة صـورة من ثلاث :

الصورة الأولى : أن يكون معلوم في ذاته (أي شخصـه)، ومعلـوم مـا هـو عليـه من كفر أو شرك.

الصورة الثانية : أن يكون معلوم في ذاته (أي شخصه)، غير معلوم ما هـو عليـه من كفر أو شرك.

الصورة الثالثة : أن يكون غير معلوم في ذاته، غير معلوم ما هو عليـه من شـرك أو كفر.

أي صورة من حكم القرآن بكفره على نحو قطعي الدلالة والثبوت، ومعلوم في ذاته (أي شخصه)، ومعلوم ما هو عليه من كفر كمن دعا غير الله أو حكم بغير شرعه أو قاتل في سبيل الطاغوت أو ما شابه ذلك ممن ورد النص بكفره.

فهذا الكافر ــ سواء كان فردًا بعينه أو طائفة ــ من لم يكفره فهو كافر راد لحكم الله، ولتوليه الكافرين من دون المؤمنين.

وكفره يرد عليه مباشرة دون حاجة إلى بيان أو إيضاح أو تردد أو توقف لوضوح النص بذلك ولوضح الواقع المحكوم بالنص.

وأما الصورة الثانية : أي صورة من حكم القرآن بكفره وهو المعلوم في ذاته، ولكن غير معلوم ما هو عليه من كفر أو شرك.

أمثال طوائف البهائية والقديانية والدروز، وأمثال هؤلاء، فهؤلاء لا يكفر من لم يكفرهم حتى يبين له من هم، ويبين له حالهم وما هم عليه من ضلال وكفر ومعتقد فاسد وأنهم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين.

ثالثاً : مناقشة شبهات المخالفين لهذه القاعدة :

أما ما يورده الضالون المضلون من شبهات للتشكيك في هذه القاعدة العقائدية الكبيرة، فهي مردودة عليهم، وكيدهم في نحرهم، وهم الخاسرون إن لم يفيئوا إلى الحق والرشاد وسيعلمون غدًا من الكذاب الأشر.

فمن شبهاتهم :

الشبهة الأولى :

أن أبا بكر وعمر ــ رضي الله تعالى عنهما ــ اختلفا في تكفير مانعي الزكاة، ولم يكفر بعضهم بعضًا لهذا الاختلاف.

وهم محرفون بهذا للنصوص، قائلون على الشيخين الجليلين ما لم يقولاه.

(1) ذلك أن حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من خليفة رسول الله أبي بكر الصديق عن مانعي الزكاة لم يشتمل على لفظ التكفير أو الكفر من قريب أو بعيد، بل كان قاصرًا على القتال، ولذا كان فقه هذا الحديث دائمًا تحت عنوان (قتال الطائفة الممتنعة).

فنجد أن عمر يقول لأبي بكر : كيف تقاتل قومًا : "شهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله".

فيقول أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

فيقول عمر : فوالله ما إن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال حتى علمت أنه الحق[1].

فالحديث لم يتناول مسألة تكفير الطائفة الممتنعة عن أداء الزكاة من قريب أو بعيد.

(2) وما استند إليه أصحاب الفهم السقيم من أن أبا بكر كان يكفرهم، ولذا قال بوجوب قتالهم، ومن أن عمر لم يكن يكفرهم، ولذا لم يرى قتالهم.

فهذا الاستدلال فاسد من أصله وأساسه، ذلك أن مسألة القتال لا علاقة لها بمسألة الحكم بالكفر على نحو الحصر والقصر، بل إن القتال يجوز لطوائف من المسلمين مع طوائف أخرى منهم لأسباب دون الكفر بكثير، كقتال علي رضي الله عنه لأصحاب الجمل وقتاله لمعاوية وأصحابه، وهو لم يكفر أي من الطائفتين.

(3) ولا يعني هذا أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لم يكفرا ما نعي الزكاة ولكن عُلم أنهم يكفرونهم من دليل آخر هو أسلوب قتالهم كقتال سائر المرتدين.

(4) ثم وإن صح ــ فرضًا جدليًا ــ استدلالهم على النحو المزعوم من أنَّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما اختلفا في تكفير طائفة مانعي الزكاة، فإن هذا الاستدلال لا يتعدى فقهه :

أن من اختلف في تكفير مانعي الزكاة لا يكفر.

أما أن يستدل بذلك على جواز الاختلاف في تكفير طائفة مسيلمة الكذاب أو الأسود العنسي أو من رجع إلى عبادة الأوثان أو من أشرك في ألوهية الله عز وجل، فذلك من القياس الفاسد ولا يصح القياس الصحيح عمومًا في التوحيد، فضلاً عن القياس الفاسد، وبالتالي فإن استدلالهم فاسد وفهمهم فاسد وأصول التعامل مع الأدلة الشرعية لديهم فاسدة.

الشبهة الثانية :

تعلقهم بما وقع من صحابة رسول الله من اختلاف في شأن طائفة من المنافقين، وهو ما أنزل الله تعالى فيه قوله تعالى :

"فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً" (النساء : 88).

وقالوا : إن هؤلاء صحابة رسول الله قد اختلفوا في تكفير طائفة من المنافقين، ومع ذلك لم يتهم رسول الله أيًا منهم بالكفر لعدم تكفيرهم للكافرين.

ولكن وكما قال الشيخ الجليل محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ :

---

[1] **يراجع جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي شرح الحديث الثامن، ص 103، ط الريان.**

[واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبيًا بهذا التوحيد إلا جعـل لـه أعـداء، كما قال تعالى : "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَـدُوّاً شَـيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُـوحِي بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً" (الأنعام : 122).

وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج قال تعالى :

"فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِـلْمِ"] (غافر : 83)[1].

ذلك أن التعرف على فقه الآيـة الكريمـة لـه أصـول وقواعـد ينبغي على من تكلم في دين الله عموما أن ينضـبط بها[2]، وإلا خـرج بفقـه ممسـوخ مشـوه يلبس بـه على الناس أمر دينهم، وقد ذم الله تعالى من تكلم في دين الله بغير علم، فَضَلَّ وأَضَلَّ.

قال تعالى : " وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيـدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ " (الحج : 3، 4).

وقال تعالى : "وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِـيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ" (الحج : 8، 9).

والآيـة الكريمـة تحـدثت عن طائفـة من المنـافقين وتحـدثت عن موقـف صـحابة رسول الله ﷺ من هؤلاء المنافقين :

- فمن هم المنافقين كتعريف عام ؟
- وما الذي أحدثوه فيما وردت بصدده الآية الكريمة (وهو سبب نزول هذه الآية) ؟
- وما قول رسول الله ﷺ في هذا الاختلاف ؟
- والمنافقون، كتعريف عـام ــ عُلم واشـتهر ــ هم كـل من أظهـر الإسـلام وأبطن الكفر.

قال ابن العربي :

---

[1] **كشف الشبهات، ص 5، م. السلفية.**

[2] **ونذكرهم أن من هذه الأصول :**
1 ــ التزام النص وطرح التأويل.
2 ــ مراعاة الصيغ مع النظر في المقاصد وتتبع المعاني.
3 ــ الوقوف مع الحكم.
4 ــ الجمع بين أطراف الأدلة.
5 ــ ربط الفرعيات الجزئية بقواعدها الكلية.
يراجع "حد الإسلام وحقيقة الإيمان"، من ص 18 وما بعدها.

[المسألة الثانية : أخبر الله سبحانه وتعالى أن الله رد المنافقين إلى الكفر وهو الإركاس، فنهى الله سبحانه وتعالى أصحاب محمد أن يتعلقوا فيهم بظاهر الإيمان إذا كان أمرهم في الباطن على الكفر] أ.هـ[3].

فالمنافق هو من أظهر الإيمان وأبطن الكفر.

ـ وأما سبب نزول الآية الكريمة ـــ فذكر المفسرون في ذلك روايات جمعها الإمام ابن العربي في خمسة أقوال فقال :

[المسألة الأولى ـ في سبب نزولها، فيه خمسة أقوال :

الأول : روى عبد الله بن يزيد الأنصاري عن زيد بن ثابت أن النبي لما خرج إلى أحُد رجعت طائفة ممن كان معه فكان أصحاب النبي فيهم فرقتين، فرقة تقول : نقتلهم، وفرقة تقول : لا نقتلهم، فنزلت، وهو اختيار البخاري والترمذي.

الثاني : قال مجاهد نزلت في قوم خرجوا من أهل مكة حتى أتوا المدينة، يزعمون أنهم مهاجرون، فارتدوا[1]، واستأذنوا النبي في الرجوع إلى مكة ليأتوا ببضائع فاختلف فيهم المؤمنون، ففرقة تقول : إنهم منافقون، وفرقة تقول : هم مؤمنون، فبين الله سبحانه وتعالى نفاقهم.

الثالث : قال ابن عباس : نزلت في قوم كانوا بمكة فتكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة وإن المؤمنين لما أخبروا بهم قالت فئة : اخرجوا إلى هؤلاء الجبناء فاقتلوهم، وقالت أخرى : قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به.

الرابع : قال السُّدى : كان ناس من المنافقين إذا أرادوا أن يخرجوا من المدينة قالوا : أصابتنا أوجاع بالمدينة فلعلنا نخرج إلى الظهر حتى نتماثل ونرجع، فانطلقوا فاختلف فيهم أصحاب النبي ، فقالت طائفة : أعداء الله منافقون، وقال آخرون : بل إخواننا غمتهم المدينة فاجتووها فإذا برئوا رجعوا فنزلت فيهم الآية.

الخامس : قال ابن زيد : نزلت في ابن أُبَيّ حين تكلم في عائشة واختار الطبري من هذه الأقوال قول من قال : إنها نزلت في أهل مكة بقوله تعالى : "فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (النساء : 89).

والصحيح ما رواه زيد بن ثابت وقوله : حتى يهاجروا في سبيل الله يعني حتى يهجروا الأهل والولد والمال ويجاهدوا في سبيل الله] أ.هـ[2].

---

(3) **أحكام القرآن للإمام ابن العربي، حـ 1، ص 469.**

(1) **فارتدوا سرًا بدليل إظهارهم الاستئذان من النبي .**

(2) **أحكام القرآن لابن العربي، حـ 1، ص 468، ط. الجبل.**

نقول هذا مثال نموذجي لطريقة الأسلاف في عرض الحالات والأحكام، فإن كل حالة نجد لها ثلاثة أو خمسة أو أكثر من التوضيحات أو الأحكام، وهذا لا يعود

هذا هو سبب النزول وهو على اختلاف مناسبة وفق الروايات الخمسة لا تجد موقفاً منهم إلا ويحتمل التأويل والاختلاف في التقدير مع عدم القطع بكفر فاعله.

وللتأكد من ذلك راجع أسباب النزول مرة أخرى وتأمل سببًا سببًا وحدد على نحو القطع الفعل المكفر الذي صدر من المنافقين واختلف فيه.

وأين هذا من دعاء غير الله، أو الذبح والنذر لغير الله، بل أين هذا من تبديل شرع الله عز وجل والاستهانة به واستحلال ما حرمه من ربا وزنا وخمر وسائر الفواحش حتى الردة عن الإسلام أصبحت مباحة في هذا الزمان وفي هؤلاء الأقوام المعاصرين.

هذا من جانب، ومن جانب آخر من المعلوم أن سُنة رسول الله على ثلاثة أقسام :

سُنة قولية : وهو ما تحدث به رسول الله أمرًا أو نهيًا أو إخبارًا.

سُنة فعلية : وهو ما فعله رسول الله وما تحلى به من أخلاق.

وسُنة تقريرية : وهي موافقته لقول قيل أمامه أو فعل وقع في حضوره بالقول أو السكوت حيث أن سكوت رسول الله إقرارًا وموافقة لامتناع التخلف عن البيان في حق رسول الله وهي أمور معلومة مشهورة لمن له أدنى اطلاع على أصول الفقه عن الله عز وجل وعن رسوله .

ولذا فإن سكوت رسول الله بالنسبة لموقف الفئتين من صحابته الكرام هو بمثابة إقرار لكل منهما فيما تأوله وذهب إليه، ودليل ذلك :

(1) أنه لم ينكر على أيٍّ منهما حتى نزلت الآية بحكم الطائفة المختلف فيها وأنهم منافقون حقاً.

(2) أن المنافق يظهر خلاف ما يبطن ولا سبيل لنا إلا معاملته بما يظهره لنا من قول وفعل، فلما كان ما يظهره هو الإسلام كان حكمه حكم المسلمين، ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لمَّا استدل عليه بمثل هذه الشبهة : [وما استدلال بترك النبي ومن بعده تكفير المنافقين وقتلهم، فقد صرح الخاص والعام ببديهة العقل : أنهم لو يُظهرون كلمة واحدة أو فعلاً واحدًا من عبادة الأوثان أو مسبة التوحيد الذي جاء به الرسول أنهم يقتلون أشر قتلة] أ.هـ[1].

فقط لأنهم كانوا "جماعين" يحرصون على الجمع حتى لا تفوتهم فائتة قد يكون فيها = = نفـع، وإنما كانوا جماعين لأنهم "نقلة" لا يحكِّمون العقل أو الفكر ولكنهم ينقلون ويجمعون كل ما ينقلون وقلما يتعرضون لترجيح، لأن هذا يتطلب الفحص والدرس والقبول والرفض.. الخ مما لم يكونوا مستعدين له، وآفة ذلك أننا لا يمكن أن نتوصل إلى حل واحد، وتصور ماذا يكون حال القاضي عندما يكون أمامه خمسة أو ستة أنواع من أحكام يمكن لو أخذ بواحد منها أن يدفع بأن هناك آخر يرى البعض أنه الأفضل.

[1] **تاريخ نجد، ص 344، الرسالة 21.**

وقد أفاض صاحب كتاب "حد الإسلام وحقيقة الإيمان" في مناقشة موضوع المنافقين وترك رسول الله قتلهم على نحو محمود ودقيق يغني من إعادة الحديث فيه فليرجع إليه[2].

(3) أن حكم الطائفة المختلف فيها قد حسمته بعد ذلك الآية الكريمة، وكان بنزولها امتناع الاختلاف ــ بعد ذلك ــ في حكم هذه الطائفة، وذلك يعني :

أن قبل نزول الآية كان اختلاف الصحابة من قبيل اختلاف التنوع الذي لا يُذم أطرافه ودليل ذلك سكوت رسول الله بما يُعد إقرارًا للطرفين المختلفين فيما تأولا وأن بعد نزول الآية الكريمة أصبح من الممتنع الاختلاف بشأن هؤلاء المنافقين، لأن الاختلاف هنا وبعد نزول الآية يصبح اختلاف تضاد[3] يُذم ويأثم الطرف المخالف فيه للنص وحكم الآية الكريمة.

ونخلص من هذا أن صحابة رسول الله لم يختلفوا بشأن قوم مقطوع بكفرهم على نحو بيِّنٍ واضح، وإنما كان اختلافهم فيمن أظهر الإسلام ثم ظهرت منه أفعال أو أقوال ظن فيهم بعض الصحابة النفاق.

وظن فيهم البعض الآخر من الصحابة حسن النية ولم يكن مقطوع بكفرهم أو نفاقهم.

وهذا خلاف موضوعنا حيث موضوعنا تكفير الكافرين المقطوع بكفرهم ومن لم يكفرهم بعد النص الواضح بكفرهم.

والحكم أنه كافر لسببين أساسيين :

الأول : أنه رد حكم الله تعالى بكفرهم.

والثاني : أنه بذلك قد تولاهم حيث الشهادة بالإسلام، كما أن الشهادة بالكفر براء.

الشبهة الثالثة :

قالوا : إن الصحابة اختلفوا في تكفير الخوارج وإن العلماء اختلفوا في تكفير الجهمية وسائر الفرق المبتدعة، وإن هذا الاختلاف لم يدفعهم أن يكفر بعضهم البعض لأجل أن منهم من لم يكفر الكافرين.

وهو قول مشبوه مردود على قائله حيث قد علمنا أن سائر الفرق المبتدعة من أهل الأهواء مخالفون لأهل السُنة والجماعة فيما هم عليه من مذهب عقيدي يتعلق بأصول سُنة الاعتقاد لا في أصل الاعتقاد والفرق بين المخالفة في أصول سُنة الاعتقاد

---

(2) **حد الإسلام وحقيقة الإيمان، ص 36 وما بعدها.**

(3) **يراجع أنواع الاختلاف وحكم كل نوع في اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ــ رحمه الله ــ وأيضًا في شرح العقيدة الطحاوية .**

وأصل الاعتقاد أن المخالف لأصل الاعتقاد مقطوع النص بكفره قرآناً وسُنة، وأما المخالف لأصول سُنة الاعتقاد فهو غير مقطوع النص بكفره[1].

ولذا سمي من خالف عقيدة أهل السُنة والجماعة[2] بأهل البدع والأهواء ولم يقطع بكفر طوائف كثيرة منهم لعدم قطعية النص بكفره، بل إن تكفيرهم كان محل اجتهاد العلماء وبالتالي محل اختلافهم.

وذلك خلاف من خالف عقيدة التوحيد كمن غلا في عليٍّ بن بي طالب فحرقهم بالنار، وكمن توجه بشيء من الشعائر والنسك التي تجب لله وحده إلى غير الله، وكمن والى أعداء الله فأمثال هؤلاء مقطوع النص بكفرهم.

ولذا ـ وكما سبق أن بينا ـ يخرج عن مجال تطبيق قاعدة من لم يكفر الكافر فهو كافر كل ما هو مقطوع النص بكفر فاعله.

ولما كان غير مقطوع النص بكفر فاعله فإن من لم يكفره لا شيء عليه فضلاً عن غيره.

فخرج بذلك الاختلاف في تكفير الخوارج أو المرجئة أو الجهمية أو المعتزلة أو سائر الفرق من أهل البدع والأهواء عن مجال تطبيق قاعدة من لم يكفر الكافر فهو كافر، ولكن بشرط ألا يضيفوا إلى بدعتهم ـ الغير مقطوع النص بكفر فاعلها ـ بدعة أخرى مقطوع النص بكفر فاعلها حيث هنا يصبح الأمر داخل حكم قاعدة من لم يكفر الكافر فهو كافر" انتهى.

* * *

على أن تسامح مؤلف "نظرات في واقع محمد قطب المعاصر" مع الذين لم يكفرهم لا يعني موالاتهم، فهذا ما يدخلهم في "البراء" بدرجات متفاوتة.

كما ذهب إلى ذلك مؤلف "تهذيب تسهيل العقيدة الإسلامية" للدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، الرياض.

فإذا كان المسلم مصرًا على شيء من كبائر الذنوب، كالربا، أو الغيبة، أو إسبال الثياب، أو حلق شعر العارضين والذقن (اللحية) أو غير ذلك، فإنه يُحب بقدر ما عنده من الطاعات، ويبغض بقدر ما عنده من المعاصي.

والمحبة للمسلم العاصي تقتضي مناصحته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ليفعل الخير ويجتنب المعصية، فينجو من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، كما تقتضي المحبة للعاصي إقامة الحدود والتعزيرات عليه ليتوب ويرجع إلى الله تعالى، ولتكون تطهيرًا له من ذنوبه.

---

[1] **يراجع عقيدة المسلم بالبحث حجة الله البالغة، الجزء الأول، للباحث عبد الرحمن شاكر نعم الله.**

[2] **حيث عقيدة أهل السُنة والجماعة هي المعبر عنها بأصول الدين وبسُنة الاعتقاد وبعقيدة الفرقة الناجية وكلها تعبر عن معنى واحد.**

وقـريب من العاصـي : المتهم بالنفـاق، فيـوالى بقـدر مـا يظهـر منـه من الخـير، ويعادى ما يظهر منه من الخبث، وإذا تبين نفاقه وحكم عليه بالنفـاق فحكمـه في بـاب الولاء والبراء حكم بقية الكفـار على مـا سـيأتي بيانـه في المبحث الآتي إن شـاء اللـه تعالى.

أما المبتدعة كالجهمية والقدرية والرافضة والأشاعرة ونحوهم فهم ثلاثة أقسام :

القسم الأول : من كان منهم داعيًا إلى بدعته أو مظهرًا لها وكانت بدعتـه غـير مكفرة فيجب بغضه بقدر بدعته، كما يجب هجرته ومعاداته، وهذا مجمع عليه بين أهـل العلم[1]، فلا تجـوز مجالسـته، ولا التحـدث معـه إلا في حـال دعوتـه ونصـحه، وهـذه المجالسة إنما تجوز في حق العلماء خاصة.

أما من لم يكن من العلماء فلا يجوز له مجالسة المبتدع، ولا أن يسمع كلامـه، ولا أن يجادلـه، ولا أن يقرأ ما يكتبه، لئلا يقع في قلبه شيء من بدعته، ولئلا يؤثر عليه بمـا يثيره من الشبهات بين الحين والآخر.

أما السلام على المبتدع والرد عليه إذا سلم فهو جائز، لكن يستحب ترك السـلام عليه، وترك إجابة سلامه إذا كان في ذلك مصلحة، كأن يكون ذلك سببًا في تركـه لهـا، أو ليعلم من حولـه قبـح عمـله وعقيدته، ليحذره العامة، ونحو ذلك[2].

والقسم الثاني من المبتدعة : من كانت بدعته مكفرة، كغلاة الصوفية الذين يـدعون الأمـوات والمشـايخ، وكغلاة الرافضـة (الشـيعة الإماميـة) الـذين يزعمـون أن القرآن محرف أو بعضه غير موجود أو يستغيثون بالمخلوقين، فهـؤلاء إذا أقيمت عليهم الحجة وحكم بكفرهم فحكمهم في باب الولاء والبراء حكم بقية الكفار على ما سـيأتي تفصيله في المبحث الآتي ــ إن شاء الله تعالى ــ

* * *

وفي النهاية فإننا نجد أن الذي أدى بدعاة الولاء والـبراء هـذا الموقـف هـو فهمهم للكفر الذي يخرج عن العقيدة وتغاليهم في هذا، وأخذهم بما ذهب إليه محمـد بن عبـد

---

[1] **قال البغوي الشافعي في شرح السنة باب مجانبة أهل الأهواء 1/226، 227 بعد ذكره لحديث كعب بن مالك "هذا حديث صحيح، وفيه دليل على أن هجران أهل البدع على التأبيد، وقد مضت الصحابة والتابعون وأتباعهم وعلماء السُنة على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم"، ونقل في الآداب الشرعية 1/232 عن القاضي أبي يعلى حكايته إجماع الصحابة والتابعين على عدم مجالسة المبتدعة، وحكى نحوه الصابوني في عقيدته 1/132، وقال الشيخ محمد بن عبد اللطيف آل الشيخ كما في الدرر السنية 8/439، 440 : "مؤاكلة الرافضي والانبساط معه وتقديمه في المجالس والسلام عليه لا يجوز ؛ لأنه موالاة وموادة، والله تعالى قد قطع الموالاة بين المسلمين والمشركين.. وقال الحسن : لا تجالس صاحب بدعة، فإنه يمرض قلبك، وقال النخعي : لا تجالسوا أهل البدع، ولا تكلموهم، فإني أخاف أن ترتد قلوبكم".**

[2] **روي ابن القاسم كما في المدونة 1/84 عن الإمام مالك قال : "لا ينكح أهل البدع ولا ينكح إليهم، ولا يسلم عليهم، ولا يصلي خلفهم"، وروي الخلال في السُنة باب ذكر الروافض 1/493، 494 أن رجلاً سأل الإمام ـحمد عن جار له رافضي هل يسلم عليه ؟ قال : لا، وإذا سلم عليه لا يرد عليه وسنده صحيح.**

الوهاب الذي تأثر بدوره بفكـر ابن تيميـة، وباللـه هـل هنـاك صـورة لتطويـع النصـوص وشلها عن معناها مثل ما أورده ابن تيميه فإنه يقر ما تـواترت بـه الأحـاديث المتعـددة عن أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير مـا يـزن شـعيرة وما يزن خردلة وما يزن ذرة، وتواترت بأن الله حرم النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فإنه بعد ذلك يورد ما يشلها ويقول "هؤلاء كانوا يصلون ويسجدون للـه، وتـواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إلـه إلا اللـه ومن يشـهد أن لا إلـه إلا اللـه وأن محمـدًا رسول الله، لكن جاءت مقيدة بـالقيود الثقـال وأكـثر من يقولهـا لا يعـرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عنـد المـوت فيحـال بينـه وبينهـا، وأكثر من يقولها يقولها تقليدًا وعادة لم يخالط الإيمان بشاشة قلبـه، وغـالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هـؤلاء كمـا في الحـديث "سـمعت النـاس يقولـون شـيئًا فقلته"[1].

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تـام لم يكن في هـذه الحال مصرًا على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون اللـه أحب إليـه من كل شيء فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمـر اللـه، وهـذا هو الذي يحرم على النار وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هـذا الإيمـان وهـذه التوبـة وهذا الإخلاص وهـذه المحبـة وهـذا اليقين لا تـترك لـه ذنبًـا إلا يمحى كمـا يمحى الليـل بالنهار.. أ.هـ [2].

نقول إن كلام ابن تيمية ليس إلا نوعًا من البهلوانية الفكرية والشـعبذة المذهبيـة، وصورة من صور التعسـف، وأين هـذا من قـول الرسـول العظيم : "يـا مقلب القلـوب ثبت قلـبي على طاعتـك"، فابتغـاء الكمـال ورفض الضـعف البشـري أمـر لا يتوغـاه إلا جاهل بالنفس البشرية كما جعلها الله وألهما فجوهرها وتقواها.

---

(1) صحيح مسلم مع شرح النووي 1/224.
(2) تيسير العزيز الحميد بشرح كتاب التوحيد، ص 66، 67.

الوجه الإمبراطوري القبيح

في مقدمة هذا الكتاب قلنا إن دعوة الولاء والبراء كانت ثمرة ثلاثـة روافـد صـبت كلها في بحيرة الولاء والبراء، وقد كـان الرافـد الأول تاريخيًـا هـو رافـد الخـوارج الـذي ظهر عندما انشق الخوارج من جيش علي بن أبي طالب وأووا إلى حـروراء وانتهى بـه فقههم إلى أن كل من يرتكب الكبيرة يصبح كافرًا، وكفروا الإمام علي وكـل من شـهد صفين، وكفروا معاوية وشيعته.. الخ، فتقلوا هذا الجم الغفير أو أكثريـة المسـلمين من خانة الولاء إلى خانة البراء.

واكتسب هذا الرافد في الفترة الحديثة قوة بظهور المودودي وسـيد قطب الـذين رأيا أن كل دولة في العصـر الحـديث سـواء كـانت داخـل العـالم الإسـلامي أو خارجـه تعيش في جاهلية ورفضا "الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعـات كلهـا وشـرعيتها، ورأيـا فيها صورة جديدة من الجاهلية لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتهـا، فهي ــ وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله ــ تعطي أخص خصائص الألوهية لغير اللـه، فتـدين بحاكمية غـير اللـه، وتتلقى من هـذه الحاكميـة نظامهـا، وشـرائعها وقيمهـا، وموازينهـا، وعاداتها وتقاليدها، وكل مقومات حياتها تقريبًا.

وقلنا إن الرافد الثالث هو الرافد الوهابي، والعنصر المميز لهذا الرافد أنه ربط ما بين الولاء والبراء، وبين شهادة "لا إله إلا الله محمد رسـول اللـه"، أي مفتـاح العقيـدة ومحورها، وبهذا الربط اعتبر أن صور الولاء لغير المسـلمين والبـــراء من المسـلمين تـُعد انتهاكًا ومخالفة لشهادة أن "لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله"، وبالتالي يصـبح كفــرًا لأنه ينصب على صميم العقيــدة.

أما الرافد الثاني فهو الرافد الإمبراطوري، أي الذين يدين بوجوده لوصول الدولـة الإسلامية إلى مرحلة الإمبراطورية في وقت مبكر للغايـة وأن هـذه الواقعـة التاريخيـة وضعت أهالي البلاد المفتوحة (العراق ــ الشام ــ مصر ــ إيران ـــ الهنـد) تحت الحكم الإسـلامي، وكـان من الممكن أن تحكم الدولـة الإسـلامية بمـا كـانت يحكم بـه الـدول الغالبة على الـدول المهزومـة، مثـل مـا تفعلـه الإمبراطوريـة الرومانيـة برعايـا الـدول المفتوحة، أو مثل ما أوصى به العهد القـديم يشـوع بمـا يفعلـه مـع سـكان فلسـطين، ولكن سـماحة الإسـلام كـانت تـرفض ذلـك بتاتـاً، فـأبقت الأهـالي على مـا هم عليـه، واحتفظت لهم بحريتهم الدينيـة، وتعهـدت بحمـايتهم وتـأمين حيـاتهم لقـاء دفـع جزيـة، وكانت الجزية إحدى معالم العصر القديم، وكانت تؤخذ على كل فرد من أفراد الأسرة أطفالاً أو نساءً أو شيوخًا، ولهذا كان يطلق عليها ضـريبة الـرؤوس، كمـا كـان تقـديرها مجحفاً في أغلب الحياة بالأهالي وقد دفع السيد المسيح الجزية للرومان، جاء الإسـلام

فجعل الجزية على الشباب الذكور وأعفى من دفعها النساء والأطفـال والشـيوخ، كمـا أعفى الرهبان ورجال الدين كما تعهد بحماية كنائسهم وحماية حرية عقيدتهم.

وهذه هي المبادئ الـتي التزمهـا المسـلمون بـدءً من الرسـول حـتى كـل قـادة الفتوح الإسلامية والعهود الذين أعطوها للمدن المفتوحة، وطبق هذا فعـــلاً في وقتـه مما كان محل تقدير الأهالي، ولكن مع تـوالي العهـود ظهـرت ممارسـات مختلفـة مـع سكان المناطق المفتوحة بعيدة كل البعد عن الاتفاق والعهود الـتي عقـدها الرسـول وصحابته من قادة الفتوح الأولى وكان الهدف من هذه الممارسـات أن هـؤلاء الأهـالي الكفـار دون المسـلمين، وقيـل أن هنـاك "عهـدة عمريـة"، أي اتفـاق أمضـاه عمـر بن الخطاب هو الذي يفرض هذه الممارسات.

ولكي نأخذ فكرة عامة نقرأ هذين الاستشهادين، الأول هو مـا قالـه شـيخ الإسـلام برهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني المتوفى سنة 592 هـ ، : "ويؤخذ أهل الذمـة بالتميز عن المسلمين في زيهم ومراكبهم وسروجهم وقلانسهم فلا يركبـون الخيـل ولا يعملـون بالسـلاح، وفي الجـامع الصـغير : ويؤخـذ أهـل الذمـة بإظهـار الكتسـتيجات والركوب على السروج الـتي هي كهيئـة الأكـف وإنمـا يؤخـذون بـذلك إظهـارًا للصـغار عليهم وصيانة لضعفة المسلمين ولأن المسلم يكـرم والـذمي يهـان، ولا يبتـدأ بالسـلام ويضيق عليه الطريق، فلو لم تكن علامة مميزة فلعله يعامل معاملة المسلمين، وذلـك لا يجوز، والعلامة يجب أن تكـون خيطـاً غليظـاً من الصـوف يشـده على وســطه دون الزنار من الإبريسم فإنـه جفـاء في حـق أهـل الإسـلام، ويجب أن يتمـيز نسـاؤهم عن نسائنا في الطرقات والحمامات، ويجعل على دورهم علامات كي لا يقف عليهـا سـائل يدعو لهم بالمغفرة !!

قالوا : الأحق أن لا يتركوا أن يركبوا إلا لضرورة، وإذا ركبوا للضرورة فلينزلوا في مجامع المسلمين، فإن لزمت الضرورة اتخذوا سروجًا بالصفة التي تقـدمت، ويمنعـون من لباس يختص به أهل العلم والزهد والشرف" أ.هـ[1].

والشاهد الثاني ما يقولـه الإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المعروف بـابن الهمـام المتـوفى سـنة 681 هــ : "وتؤخـذ أهـل الذمـة عن المسـلمين في زيهم وفي مراكبهم وسروجهم وقلانسهم"، وحاصل هذا أن أهل الذمة لمـا كـانوا مخـالطين لأهـل الإسلام فلابد مما يتميز به المسلم من الكافر كي لا يعامل معاملة المسلم في التوقير والإجلال وذلك لا يجوز، وربما يموت أحدهم فجأة في الطريق ولا يُعرف فيصلى عليـه، بخلاف يهود المدينـة لم يـأمرهم صـلى اللـه عليـه وسـلم بـذلك لأنهم كـانوا معـروفين بأعيانهم لجميع أهل المدينة ولم يكن لهم زي عـال على المسـلمين، وإذا وجب التمـيز وجب أن يكون بما فيه صغارًا لا إعزاز لأن إذلالهم لازم بغير أذى من ضرب أو صفع بلا سبب يكون منه المراد اتصافه بهيئة وضيعة، ولذا أمروا (بالكسـتيجات) وهـو خيـط في

---

(1) **الهداية على شرح بداية المبتدي، حـ 6، ص 57 .**

غلظ الإصبع من الصوف يشده فوق ثيابه دون الزنار من الإبريسم (لأن فيه جفاء بالمسلمين)، أي إغلاظاً عليهم فهو من حسن العشرة معهم ولدفع الضرر عن ضعفة المسلمين في الدين، فربما يمرقون بجهلهم فيقولون الكفار أحسن حالاً منا فإنهم في خفض عيش ونعمة ونحن في كد وتعب، وإليه أشار بقوله تعالى "وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ" (الزخرف : 33)، تنبيهًا على خسة الدنيا عند الله عز وجل، وإذا مُنع من شد زنار وهو حاشية رقيقة من الإبريسم فمنعهم من لباس الثياب الفاخرة التي تُعد عند المسلمين فاخرة سواء كانت حريرًا أو غيره كالصوف المربع والجوخ الرفيع والأبراد الرقيقة أولى".

وهم يعيدون هذه الممارسات إلى العهدة العمرية المزعومة، التي عرضوها كالآتي :

روي سفيان الثوري عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى الشام، وشرط عليهم فيه ألا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة، ولا قلاية، ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يؤووا جاسوسًا، ولا يكتموا غشًا للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يظهروا شركًا، ولا يمنعوا ذوي قراباتهم من الإسلام إن أرادوه وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، ولا يتكنوا بكناهم، ولا يركبوا سرجًا، ولا يتقلدوا سيفاً، ولا يبيعوا الخمور، وأن يجزوا مقادم رؤوسهم، وأن يلزموا زيهم حيثما كانوا، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم ولا يظهروا صليبًا ولا شيئاً من كتبهم في شيء من طرق المسلمين، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من محضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين، ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم، ولا يظهروا النيران معهم، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين.

وأردف مؤلف "الولاء والبراء في الإسلام " محمد بن سعيد بن سالم القحطاني :

ولهذه الشروط طرق أخرى في روايتها، ولكنها كلها تلتقي عند هذا المعنى، ولذلك عقب ابن القيم رحمه الله على اختلاف تلك الروايات بقوله : وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها من بعده الخلفاء وعملوا بها.

ويعبر المؤلف عن إعجابه بها فيقول :

سبحان الله !!!

"أين تلك العزة والقوة والسلطان الرباني الذي أخذ به ذلك الجيل، وأين الضعف والاستخذاء والتبعية العمياء التي يعيشها "المسلمون" اليوم ؟

ما هذا البون الشاسع بين تلك القمة وبين هذا الغثاء الذي يعيش اليوم على الأرض متميعًا متسكعًا وراء الكفار والملاحدة ؟ ويحسب نفسه مسلمًا ؟[1] ".

ولعمري إن هذه الكلمات، عندما تكون بصدد تلك الشروط، فهي أنكى واشد وقعًا منها، وفات قائلها أنها هي السبب في تدهور المسلمين، فكما تفعل بالناس فسيفعل بك الناس ما فعلته بهم، فضلاً عن منافاتها لأصل الإسلام، فهي ابعد شيء عما تصوره المؤلف.

ونحن نرفض نسبة تلك الشروط إلى عمر رفضًا باتاً جازمًا لأسباب عديدة، ومترافدة، لا تدع شكاً في أن الذي حبكها ونسجها ليس هو عمر، ولكن بعضًا من فقهاء السلاطين في وقت بلغت الدولة الإسلامية مرحلة "الإمبراطورية"، وكان عليهم تبعًا لسنن التطور أن تخضع لمقتضيات الدولة الإمبراطورية وروحها بحيث تسلك كما سلك الإمبراطوريات السابقة، حتى وإن لم نعدم أثرًا من رحمة الإسلام وسط ظلمات الإمبراطورية.

أول هذه الأدلة تناقضها مع ما جاء به القرآن الكريم، ففي آية الممتحنة، بعد أن جاءت الآيات المشهورة عن براءة إبراهيم من قومه "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" (الآية 4) التي يستشهد بها دعاة الولاء والبراء كثيرًا، فإن الآية السابعة لم تستبعد أن يجعل الله بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة، ثم جاءت الآيتان الحاكمتان "لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ" (الممتحنة 8، 9).

فإذا كان القرآن لا ينهانا عن "البر"، وهو التعبير الذي استخدمه القرآن ليصور به العلاقة ما بين الآباء والأبناء، فكيف يجيز تلك الصور من المهانة للذميين ــ أي الذين يعيشون في ذمة الله ورسوله ــ والذين ألقوا السلم للمسلمين.

ولم يأمر القرآن الكريم المسلمين أن يبدءوا بقتال، ولكن كل هذا القتال كان ردًا على حرب بدأها المشركون بعد أن أخرجوهم من ديارهم، ثم لاحقوهم، أي أنه

---

[1] **الولاء والبراء في الإسلام، تأليف محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار النور الإسلامية ، ص 938.**

كان دفاعًا عن حرية العقيدة، وكان أقسى ما سمح به القرآن للمسلمين هو المعاملة بالمثل، ولكنه حتى مع هذا يستدرك أن العفو والصلح أولى وأجدى بالمؤمنين.

ومعاملة القرآن للأديان الأخرى معاملة كريمة، وهو يعترف بها ويعظم أنبياءها وكل ما يأخذه عليها هو ما حدث من تحريف فيها إما نتيجة للترجمات العديدة أو نتيجة لحرص المؤسسة الدينية على تحقيق كسب لها، أو أن تجعل دينها مميزًا على الأديان، فهي مسئولية الهيئات والكبار، ولا علاقة بعوام الناس وجماهيرهم بهذا كله، وهم لا يعلمون عنه شيئاً، فهم في ستر "لا أدري" وحمايتها، ولا يجوز أن نعاملهم على ما لم تقترفه يداهم، وإنما قام به آخرون.

ولم يحرم القرآن الذين يؤمنون بالأديان الأخرى من يهود، وصابئة، ونصارى، بل ومجوس ومشركين من رحمة الله، ولم يقض عليهم بالعذاب، وإنما أوكل الحكم فيهم إلى الله تعالى يوم الآخرة.

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة : 63).

" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " (الحج : 17).

إن القرآن الكريم قرر أخوة العالم عندما قال "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا" (الحجرات : 13).

* * *

قد يقال أن القرآن نص على الجزية وما يصاحبها من صغار في الآية 29 من سورة التوبة عندما قال "قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ".

نقول إن هذه الآية فعلاً أثارت دهشتي، وقلت في كتاب الجهاد عند استعراض ما جاء في القرآن من آيات عن القرآن أنني لم أفهمها وتصورت أنها ترقى إلى قوم غير عرب الجزيرة سيحاربون الإسلام بشراسة واستعلاء بحيث يجب حربهم وإلزامهم بدفع الجزية من "يد وهم صاغرون"، لأن هذا لم يحدث أيام الرسول [1]، فقد جاء نصارى

---

[1] **فهمنا للآية أنها تريد الفرس الذين لم يكن لهم كتب منزلة وإنما كانوا يعبدون النار، ولما أرسل النبي رسولاً إلى كسرى مزق هذا خطاب الرسول وأمر أتباعه بالقبض على الرسول، فكانت الآية التي نزلت في الأيام الأخيرة للرسول، إيماءة إلى حرب هؤلاء الذي تحقق بالفعل في الأيام الأولى للخليفة عمر بن الخطاب على يد المثني بن حارثة وكان ذلك بداية الفتوح.**

نجران وأرادوا، أن يباهلوا الرسول ﷺ، فلم يرفض، ولكنهم فكروا أن هـذا لن يكـون في مصلحتهم، وجاء في إحدى الروايات أنهم قالوا "ألستم تقولون إن المسيح كلمـة اللـه، وروح منه، فقال المسلمون بلى، قالوا حسبنا هـذا، وطلبـوا من الرسـول ﷺ أن يرسـل معهم أحد أصحابه يتولى أخذ الجزية، وأرسـل معهم الرسـول ﷺ أبـا عبيـدة بن الجـراح وهو "أمين هذه الأمة" وأتقاها ولم يحدث في عهد الرسول ﷺ أن دفع نصـارى أو يهـود الجزية عن يـد وهم صـاغرون، لقـد دفعوهـا وهم شـاكرون للمسـلمين، كمـا لم يتعنت المسلمون في اقصاء الجزية، وكيـف يتعنتـون وقـد كـان الرسـول يوصـي من يرسـلها "مصدقا"، أي أخذاً للزكاة أن يتقي "كرائم أموالهم".

وقد عدت إلى التفاسير لأرى ماذا يقولون عن الجزية، ودهشت أيما دهشة، فهذه الجزية التي خصص لها الأسلاف عشرات الصفحات، والتي أوردنا بعض التصورات لها، لم تظفر من الطبري إلا بثلاثة أو أربعـة سـطور ولم يشـر مجـرد إشـارة إلى "العهـدة العمرية" مما يجعلنا نفهم أنهـا لم تكن معروفـة لأن تفسـير الطـبري هـو أكـبر تفسـير بالمأثور أي بالمرويات، فهو يذكر كل واردة وشاردة عن الرسـول ﷺ أو الصـحابة، وكـل ما جاء به هو "حدثني عبد الرحمن بن بشر النيسابوري قال سـفيان عن ابن سـعد عن عكرمة حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، قال تأخذها وأنت جـالس وهـو قـائم، وقال آخـرون معـنى قولـه حـتى تعطـوا الجزيـة وهم صـاغرون عن لأنفسـهم بأيـديهم يمشون بها وهم كارهون، وذلك قـول روي عن ابن عبـاس من وجـه فيـه نظـر، وقـال آخرون إعطاؤهم إياها هو الصغار"[(1)].

وجاء في القرطبي عند تفسيره حتى يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون (الجــزء الثامن ص 115) عن يد، قال ابن عباس يدفعها بنفسه غـير مسـتنيب فيهـا أحـدًا، روي أبو البختري عن سلمان قال مذمومين، وروي معمر عن قتـادة عن قهـر وقيـل عن يـد عن أنعـام منكم عليهم لأنهم إذا أخـذت منهم الجزيـة فقـد أنعم عليهم بـذلك، عكرمـة يدفعها وهو قائم والآخر جالس، وأشار إلى ما قاله الرسول ﷺ "اليد العليا خـير من اليـد السفلى واليـد العليـا المنفقـة والسـفلى السـائلة "وروي" واليـد العليـا هي المعطيـة، فجعل يد المعطي في الصدقة عليا وجعل يـد المعطي في الجزيـة سـفلى، ويـد الآخـر عليا، كما أشار أيضًا إلى أن الصغار هو إعطاء الجزية نفسه ولم يشر أقـل إشـارة إلى هذه المهولات التي جاءت في العهدة العمرية كما لوحظ.

وليس عبثـاً أن لا يورد الطبري أي شيء عن "العهـدة العمرية" المزعومة، مع أنه أكبر التفاسير بالمأثور لأنها لم تكن معروفة حـتى القـرن الرابـع (تـوفي الطـبري سـنة 310)، وأنها إنما عرفت بعد ذلك بعد أن بلغت الدولـة مستواها الإمبراطوري وتســلط عليها ترك وأرمن وروم وفارسيين وديلم.. الخ، الذين سلكوا بها مسلك الإمبراطوريات الأخرى في إذلال الخاضعين لهم، وآية ذلك أننا نـرى الإشـارة إلى العهـدة العمريـة في

---

(1) **تفسير الطبري، ص 77 ــ 78، الجزء العاشر، طبعة المطبعة الأميرية ببولاق سنة 1327، ولم يأبه نظام الدين النيسابوري في تفسيره على هامش تفسير ابن جرير للآية وكل ما قاله "عن يدٍ عن حكم صاحب قوة وهو الشارع".**

ابن كثير المتوفى سنة 770، أي بعد أربعة قرون من وفاة الطـبري (310)، فجـاء في تفسيره (عن يد) أي عن قهر لهم وغلبة، (وهم صاغرون)، أي ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعـزاز أهـل الذمـة ولا رفعهم على المسـلمين، بـل هم أذلاء، ولا تبـدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضـطروهم إلى أضـيقه، ولهـذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشروط المعروفـة في إذلالهم وتحقيرهم وذلك ممـا رواه الحفـاظ من روايـة عبـد الـرحمن بن غنم الأشـعري قال كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح النصارى من أهـل الشـام بسـم الله الرحمن الرحيم هذا الكتاب لعبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمـنين من نصـارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمـان لأنفسـنا وذرارينـا وأموالنـا وأهـل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا تحدث في مدينتنا ولا في مـا في حولهـا، ديـرًا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي منها ما كان خططاً للمسلمين، وأن لا نمنع كنائسـنا أن ينزلهـا أحـد من المسـلمين في ليـل ولا نهـار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من رأينا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنـا جاسوسًـا، ولا نكتم غشًّـا للمسـلمين، ولا نعلم أولادنـا القرآن، ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحدًا ولا نمنع أحدًا من ذوي قرابتنـا الـدخول في الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فـرق شـعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السـلاح ولا نحملـه معنـا ولا ننقش خواتيمنـا بالعربيـة ولا نـبيع الخمـور وأن نجـرد مقاديم رؤوسنا وأن نلزم زينا حيثما كنا وأن نشـد الزنـانير على أوسـاطنا وأن لا نظهـر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنـا في شـيء من طـرق المسـلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضربًا خفيفاً وأن لا نرفع أصواتنا بـالقراءة في كنائسـنا في شـيء من حضـرة المسـلمين ولا نخـرج شـعانين ولا بعوثـاً ولا نرفـع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسـواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق مـا جـرى عليـه سـهام المسـلمين وأن نرشـد المسـلمين ولا نطلـع عليهم في منـازلهم، قـال فلمـا أتيت عمـر بالكتـاب زاد فيـه ولا نضرب أحدًا من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حـل لكم منـا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق"[1].

يكفي لتفنيد هذه الوثيقة الادعاء أن أهل الذمة هم الذين كتبوها، ولأي شيء يقيـد أهل الذمة طائعين، مختارين أنفسهم بهذه القيود الثقال، هذا أمر لا يعقل وليس له أي سابقة، فضلاً عن أن هناك روايـة أخـرى لهـذا المضـمون جـاءت على لسـان الفـاتحين المنتصرين، وليس المهزومين الخاضعين، وهي بالطبع أقرب إلى المألوف.

) انظر تفسير ابن كثير ص 146 حـ 4، طبعة المنار سنة 1346هـ.

وأسوأ ما قرأنا في تفسير الآية هو ما أورده البغوي المتوفى سنة 516 هـ "وهم صاغرون"[2] أذلاء مقهورون قال عكرمة يعطون الجزية عن قيام والقابض جالس، وعن ابن عباس يؤخذ منه ويوطأ عنقه، وقال الكلبي إذا أعطى صفع في قفاه، وقيل يؤخذ بلحيته ويضرب في لهذمته، وقيل يلبب ويجر إلى موضع الأعطاء بعنف، وقيل إعطاؤها إياها هو الصغار، وقال الشافعي رحمه الله الصغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم .

وجاء في تفسير الرازي :

[وقال الرازي "وهم صاغرون"، فالمعنى إن الجزية تؤخذ منهم على الصغار والذل والهوان بأن يأتي بها ماشيًا غير راكب ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ويؤخذ بلحيته فيقال لـه "أد الجزية"، وإن كان يؤديها يزج في قفاه فهذا معنى "الصغار"، وقيل معنى "الصغار" ههنا هو نفس إعطاء الجزية، وللفقهاء أحكام كثيرة من توابع الذل والصغار مذكورة في كتب الفقه[3].

نقول إن ما جاء في الطبري من أن الصغار هو أن يدفعها صاحبها واقفاً بينما يجلس قابضها ليس فيه نوع من الصغار، فكل المواطنين يقفون أمام الموظفين الجالسين على مقاعدهم عندما يقومون بإنهاء مطالبهم، أما الإضافات وخاصة عند ابن كثير المتوفى في القرن الثامن فهو أكثرها تأثرًا بالعهدة العمرية المزعومة والتي نشرها فقهاء السلطان.

وأكثر من تعرض للجزية وأحكامها هو تفسير المنار للسيد رشيد رضا، فقد استغرق ذلك قرابة عشرين صفحة وأثبت أنها عوض الدفاع عنهم، وأنه إذا لم يستطع المسلمون الدفاع عنهم فإن عليهم أن يعيدوا إليهم ما أخذوه، وقال "أما أهل الذمة فما كان يحق للإسلام أن يجبرهم على مباشرتهم القتال في حال من الأحوال، بل الأمر بيدهم، رضوا بالقتال عن أنفسهم وأموالهم عفوا عن الجزية، وإن أبوا أن يخاطروا بالنفس فلا أقل من أن يسامحوا بشيء من المال وهي الجزية ؛ ولعلك تطالبني بإثبات بعض القضايا المنطوية في هذا البيان، أي إثبات أن الجزية ما كانت تؤخذ من الذميين إلا للقيام بحمايتهم والمدافعة عنهم وأن الذميين لو دخلوا في الجند أو تكلفوا أمر الدفاع لعفوا عن الجزية، فإن صدق ظني فأصغ إلى الروايات التي تعطيك الثلج في هذا الباب وتحسم مادة القيل والقال.

(فمنها) ما كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وأوغل فيها وهذا نصه : "هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إني عاهدتكم على الجزية والمنعة، فلك الذمة والمنعة وما منعناكم أمان، وصالحكم صلح، نحن لكم على الوفاء".

---

(2) **تفسير ابن كثير، ص 144، الجزء الرابع، الهامش، طبعة دار المنار، 1347 هـ.**

(3) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، ص 25، الجزء 6، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م .**

(ومنها) ما كتب أهل ذمة العراق لأمراء المسلمين وهذا نصه "إنا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم".

(ومنها) المقالة التي كانت بين المسلمين وبين يزدجرد ملك فارس حينما وفدوا على يزدجرد وعرضوا عليه الإسلام، وكان هذا في السنة الرابعة عشر في عهد عمر بن الخطاب، وكان من جملة كلام نعمان الذي كان رئيس الوفد "وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم".

(ومنها) المقالة التي كانت بين حذيفة بن محصن وبين رستم قائد الفرس وحذيفة هو الذي أرسله سعد بن أبي وقاص وافدًا على رستم في سنة أربع عشرة في عهد عمر بن الخطاب، وكان في جملة كلامه "أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك"، فانظر إلى هذه الروايات الموثوق بها بين الجزية والمنعة، وكيف صرح خالد في كتابه بأنا لا نأخذ منكم الجزية إلا إذا منعناكم ودافعنا عنكم، وإن عجزنا عن ذلك فلا يجوز لنا أخذها.

وهذه المقالات والكتب مما ارتضاها عمر وجل الصحابة، فكان سبيلها سبيل المسائل المجمع عليها.

ولا تظنن أن شرط المنعة في الجزية إنما كان يقصد به مجرد تطييب نفوس أهل الذمة وإسكان غيظهم ولم يقع به العمل قط، فمن أمعن النظر في سير الصحابة واطلع على مجاري أحوالهم، عرف من غير شك أنهم لم يكتبوا عهدًا ولا ذكروا شرطاً إلا وقد عضوا عليه بالنواجذ، وأفرغوا الجهد في الوفاء به، وكذلك فعلهم في الجزية التي يدور رحى الكلام عليها.

فقد روي القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج عن مكحول أنه لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم، صاروا أشداء على عدو المسلمين وعيوناً للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعًا لم ير مثله، فأتى رؤساء أهل كل مدينة الأمير الذي خلفه أبو عبيدة فأخبروه بذلك فكتب والي كل مدينة ممن خلفه أبو عبيدة إلى أبي عبيدة يخبره بذلك، وتتابعت الأخبار على أبي عبيدة فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين، فكتب أبو عبيدة إلى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها بأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج وكتب إليهم أن يقولوا لهم : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا "ردكم الله علينا ونصركم عليهم، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء بقي حتى لا يدعوا شيئاً".

وقال العلامة البلاذري في كتابه "فتوح البلدان" : حدثني أبو جعفر الدمشقي قال : حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال : بلغني أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لموقعة اليرموك، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا

منهم الخراج قالوا : "قد شغلنا عن نصرتكم والـدفع عنكم فـأنتم على أمـركم"، فقـال أهل حمص : "لولايتكم وعدلكم أحب إلينا ممـا كنـا فيـه من الظلم والغشـم، ولنـدفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم"، ونهض اليهـود فقـالوا : "والتـوراة لا يـدخل عامـل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد"، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعــل أهل المدن الـتي صـولحت من النصـارى واليهـود، وقـالوا : إن ظهـر الـروم وأتبـاعهم على المسلمين صرنا على ما كنا عليه، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمســلمين عدد".

وقال العلامة الأزدي في كتابه "فتوح الشام" يـذكر إقبـال الـروم على المسـلمين ومسير أبي عبيدة من حمص : "فلما أراد أن يشـخص دعـا حـبيب بن مسـلمة فقـال : أردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنا أخذنا منهم، فإنه لا ينبغي لنـا إذ لا نمنعهم أن نأخذ منهم شيئاً، وقل لهم : نحن على ما كنا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح ولا نرجع عنه إلا أن ترجعوا عنه، وإنما رددنا عليكم أموالكم لأنـا كرهنـا أن نأخـذ أموالكم ولا نمنع بلادكم"، فلما أصبح أمر الناس أن يرتحلـوا إلى دمشـق، ودعـا حـبيب بن مسلمة القوم الذين كانوا أخذوا منهم المال فأخذ يـردده عليهم وأخـبرهم بمـا قـال أبو عبيدة، وأخذ أهل البلد يقولون : "ردكم الله إلينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الـروم، ولكن والله لو كانوا هم ما ردوا إلينــا، بل غصـبونا وأخـذوا مـع هـذا مـا قـدروا عليه من أموالنا"، وقال أيضًا يذكر دخول أبي عبيدة دمشق : "فأقام أبو عبيدة بدمشق يومين وأمر سويد بن كلثوم القرشي أن يـرد على أهـل دمشـق مـا كـان اجتـبي منهم الذين كانوا أمنوا وصالحوا فرد عليهم ما كان أخـذ منهم، وقـال لهم المسـلمون : نحن على العهد الذي بيننا وبينكم ونحن معيدون لكم أماناً".

أما ما ادعينا من أهل الذمة إذ لم يشترطوا علينا المنعة أو شاركونا في الذب عن حريم الملك لا يطالبون بالجزية أصلاً، فعمدتنا في ذلـك أيضًـا صـنيع الصـحابة وطريـق عملهم، فـإنهم أولى النـاس بالتنبـه لغـرض الشـارع وأحقهم بـإدراك سـر الشـريعة، والروايات في ذلك وإن كانت جمة نكتفي هنا بقدر يسير يغني عن كثير.

(فمنها) كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن أحد قواد عمر بن الخطاب لرزبـان وأهل دهستان وهاك نصه بعينه "هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسـائر أهـل جرجـان، إن لكم الذمـة وعلينـا المنعـة على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ومن استعنا به منكم فلـه جـزاؤه في معونته عوضًا عن جزائه، ولهم الأمـان على أنفسـهم وأمـوالهم ومللهم وشـرائعهم ولا يغير شيئاً من ذلك شهد سواد بن قطبة وهند بن عمـر وسـماك بن مخرمـة وعتيبـة بن النهاس، وكتب في سنة 118 هـ (طبري ص 2658).

(ومنها) الكتاب الذي كتبه عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب وهذا نصــه : "هذا ما أعطي عتبة بن فرقد عامل عمـر بن الخطـاب أمـير المؤمـنين أهـل أذربيجـان سلهلها وجبلها وحواشيها وشـفارها وأهـل مللهـا كلهم الأمـان على أنفسـهم وأمـوالهم

ومللهم وشـرائعهم على أن يـؤدوا الجزيـة على قـدر طـاقتهم، ومن حشر[1] منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك" أ.هـ (طبري صحيفة 2262).

(ومنها) العهد الذي كان بين سراقة عمـر بن الخطـاب، وبين شـهر بـراز كتب بـه سراقة إلى عمر فأجازه وحسنه وهاك نصه :

"هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا ولا ينقضوا، وعلى أرمينية والأبواب الطراء منهم والتناء[1]، ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة، وينفذوا لكل أمر نـائب أو لن ينب رآه الـوالي صـلاحًا على أن يوضـع الجزاء عمن أجاب" إلى ذلك، ومن استغنى منهم وقعد فعليـه مثـل مـا على أذربيجـان من الجزاء، فإن حشروا وضع ذلك عنهم، شـهد عبـد الـرحمن بن ربيعـة، وسـلطان بن ربيعة، وبكير بن عبد الله، وكتب مرضي بن مقرن وشهد" أ.هـ (طبري صـحيفة 2665، 2666).

(ومنهـا) مـا كـان من أمـر الجراجمـة، وقـد أتى العلامـة البلاذري على جملـة من تفاصيل أحوالهم فقال : حدثني مشايخ من أهل أنطاكية أن الجراجمـة من مدينـة على جبل لكام، عند معدن الزاج، فيما بين بيامن وبوقا، يقال لهـا : الجرجومـة، وأن أمـرهم كان في استيلاء الروم على الشام، وأنطاكية إلى بطريق أنطاكيـة وواليهـا، فلمـا قـدم أبو عبيدة أنطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسـهم، فلم يتنبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم، ثم إن أهل أنطاكية نقضـوا وغـدروا، فوجـه إليهم أبو عبيـدة من فتحهـا ثانيـة، وولاهـا بعـد فتحهـا حـبيب بن مسـلم الفهـري، فغـزا الجرجومة فلم يقاتله أهلهـا، ولكنهم بـدروا بطلب الأمـان والصـلح، فصـالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام، وألا يؤخـذوا بالجزيـة"، ثم إن الجراجمة مع أنهم لم يوفوا ونقضوا العهد غير مـرة لم يؤخـذوا بالجزيـة قـط حـتى إن بعض العمال في عهد الواثق بالله العباسي ألـزمهم جزيـة رؤوسـهم فرفعـوا ذلـك إلى الواثق فأمر بإسقاطها عنهم أ.هـ.

* * *

من هنا يتضح أن هذه العهدة المزعومـة تتنـاقض مـع آيـات القـرآن الكـريم الـتي أقامت العلاقات مع الآخر على الحكمة والموعظة الحسنة وتسويتها بالتي هي أحسـن، والتي سنشير إليها في الفصل الرابع من هذا الكتاب ويمكن لنا أن ننتقل إلى منافاتهـا للرسول [illegible].

<u>الرسول [illegible] :</u>

كان من الأعمال الأولى للرسول [illegible]

[illegible]

---

[1] الحشر هنا جمع الناس وسوقهم للقتال أو مساعدة المقاتلة.

[1] الطراء : الغرباء الذين يطرءون، جمع طارئ، والتناء : المقيمون.

[illegible]

ونجران، وهي إحدى "مخاليف" اليمن وتقع شمال صنعاء من ناحية مكة، وكانت منطقة آهلة بالسكان تضم خمسة وثلاثين قرية ويسكنها قبائل من العرب اليمنيين، وكان لهم قديمًا تاريخ، ويقال أنهم الذين نصب لهم الملك ذو نواس اليهودي الأخدود لما رفضوا اليهودية وأصروا على المسيحية، وكانت نجران مستقلة بشئونها يديرها ساداتها وأشرافها ولها نظام سياسي وإداري وكان أهلها من بني الحارث بن كعب يدينون بالمسيحية وكان من أبرز سادتهم العاقب.

وكان الرسول ﷺ قبل ذلك قد أرسل إلى نجران خالد بن الوليد ليدعو أهل نجران إلى الإسلام فأسلم بعضهم، وعاد خالد مع وفد منهم أكرمهم الرسول ﷺ ومنحهم عشرة أواق، وأرسل إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم وكتب له كتابًا يُعد من الوثائق الهامة لأن فيه تحديدًا للزكاة وغيرها، وجاء فيه **أن من كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عليها، ولكن عليه الجزية**.

بيد أن هذا لم يكن شأن كل نجران، فقد تمسك الكثير من أهلها بالمسيحية، بل وبلغ بهم تمسكهم أن فكروا في "المباهلة" مع المسلمين وأرسلوا وفدًا لذلك، ثم رأوا ترك فكرة المباهلة، وجاء في إحدى الروايات أنهم قالوا : ألستم تقولون إن المسيح كلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم، فقالوا أجل، فقالوا : حسبنا ذلك، بل أنهم ارتضوا حكم الرسول ﷺ وطلبوا منه رجلاً يكون بينهم كالقاضي، فأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح.

وكتب لهم كتابًا هامًا يتضمن عهده وضمان أموالهم وأملاكهم وما وجب عليهم من جزية.. الخ.

وجاء فيه "هذا كتاب من محمد النبي، رسول الله، لأهل نجران، إنه كان له عليهم حكمه في كل ثمرة صفراء أو بيضاء أو سوداء، أو رقيق، فأفضل عليهم، وترك ذلك كله على ألفي حلة، حلل الأواقي[1]، في كل رجب ألفى حلة، وفي كل صفر ألفي حلة، كل حلة أوقية، فما زادت حلل الخراج أو نقصت على الأواقي فبالحساب، وما قبضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض، أخذ منهم بالحساب، وعلى نجران مثواة رسلي عشرين يومًا فدون ذلك، ولا تحبس رسلي فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا، إذا كان باليمن كيد، وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل، أو ركاب، فهو ضمان على رسلي حتى يؤدوه إليهم، ولنجران وحاشيتهم جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم،

(1) **أي ثمن كل حلة أوقية، وهي تعادل أربعين درهمًا فضة، انظر : ترتوت (أهل الذمة في الإسلام"، ص 239.**

وغـائبهم وشـاهدهم وبيعهم وصـلواتهم لا يغـيروا أسـقفاً عن أسـقفيته، ولا راهبًـا عن رهبانيته، ولا واقفاً عن وقفانيته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثـير، وليس ربـا، ولا دم جاهلية، ومن سأل منهم حقاً، فبينهم النصـف غـير ظـالمين ولا مظلـومين لنجـران، ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ولا يؤاخـذ أحـد منهم بظلم آخـر، وعلى مـا في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي أبدًا حتى يأتي الله بأمره، أن نصحوا وأصـلحوا فما عليهم، غير مثقلين بظلم"(2).

وكانت هذه الجزية هي أول جزية في الإسلام، وكانت من الحلل والسلاح وليست ذهبًا أو فضة، وكان يأخذها منهم على قسطين في شهري صفر ورجب".

وتذكر بعض الروايات التاريخية : أن رسول الله عليه الصلاة والسلام، كتب إلى أبي الحارث بن علقمة، أسقف نجران : "من محمد النبي إلى الأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران وكهنتهم، ومن تبعهم، ورهبانهم : أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، وجوار الله ورسوله، لا يغير سقف عن سقفيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه، وعلى ذلك جـوار الله ورسوله، أبدًا ما نصحوا، وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين"(1).

) أبو يوسف : "الخراج"، ص 72 : 73، ابن سعد : الطبقات"، حـ 3، ص 287، البلاذري : "فتوح البلدان"، ص 76، أبو عبيـد : "الأموال"، ص 188، ابن حديدة : "المصباح المضيء"، ص 125، ابن الأكوع : "الوثائق"، ص 94 : 96 ويقول أبو عبيدة (ص 190) : ألا تراه غلظ عليهم أكل الربا خاصة من بين المعاصي كلها، ولم يجعله لهم مباحًا، وهو يعلم أنهم يرتكبون من المعاصي ما هو أعظم من ذلك، من الشرك وشرب الخمر وغيره وإنما فعل ــ ﷺ ــ ذلك دفعًا عن المسلمين، وأن لا يبايعوهم به، فيأكل المسـلمون الربا، ولولا المسلمين ما كان أكل الربا إلا كسـائر ما هم فيه من المعاصي، بل الشرك أعظم، وقد أجلاهم عمر ابن الخطاب، رغم علمه بعهد رسول الله لهم، وذلك لتركهم ما شـــرط عليهم رسول الله من أكل الربا، وذكر اليعقوبي (تاريخه)، حـ 2، ص 54، نص كتاب رسول الله لأهل نجران "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من النبي محمد رسول الله، لنجران وحاشـيتها، إذ كان له عليهم حكمه في بيضاء أو صفراء، ثمرة ورقيق، كان أفضل ذلك كله لهم غير ألفي حلة من حلل الأواقي، قيمة كل حلة أربعين درهمًا، فما زاد أو نقص، فعلى هذا الحساب، ألف في صفر، وألف في رجب، وعليهم ثلاثون دينارًا، مثواه ومسلى شهر فما فوق، وعليهم كل حرب كانت باليمن، دروع عارية مضمونة، لهم بذلك جوار الله وذمة محمد، فمن أكل الربا منهم، بعد عامهم هذا، فذمتي منه بريئة"، فقال العاقب : يا رسول الله أنا نخاف أن تأخذنا بجناية غيرنا، قال : "ولا يؤخذ أحد بجناية غيره".

) ابن سعد : "الطبقات"، حـ 3، ص 276، ابن الأكوع : "الوثائق"، ص 92.

وعندما بدأت الردة إثر وفــاة الرسول، وهم يومئذ أربعـون ألف مقاتل، وكان من أول وأشد من بدأها الأسود العنسي اليمني، ولكن نصارى نجران لم يعاونوه، بل أرسلوا وفــدًا ليجددوا عهدهم مع أبي بكر، فكتب أبو بكر :

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله أبي بكر، خليفة رسول الله نجـــران، جارهم من جنده ونفسه، وأجاز لهم ذمة محمد ، وغائبهم وشاهدهم وأسقفهم، ورهبانهم، وبيعهم ما وقعت، وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير، عليهم ما عليهم، فإذا أدوه، فلا يحشرون ولا يعشرون، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ووفى لهم بكل ما كتب رسول الله وجوار المسلمين، عليهم النصح والإصلاح"[2].

وفي عهد عمر، قرر إجلاء اليهود والنصارى من جزيرة العرب تطبيقاً لوصية الرسول، فأمر أبا يعلي بن أمية واليه على خراج نجران وبإجلاء نصارى نجران تنفيذاً لوصيتي الرسول وأبي بكر، خلال مرضهما الأخير، وكتب عمـــر إليه : "آتيهم، ولا تفتنهم عن دينهم، ثم أجلهم، من أقام على دينـــه، وأقرر المسلم، وأمسح أرض كل من تجلى منهم، ثم تعطيهم أرضًا كأرضهم، إقـــرارًا لهم بالحق على أنفسـنا، ووفاء بذمتهم، فيما أمر الله من ذلك، بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمـن، وغيرهم، فيما صاروا لجيرانهم بالريف"، وكتب عمر بن الخطاب للأمراء المسلمين الذين ينزلون في سلطانهم.

وفي عهد عثمان ساء حالهم فيما يبدو وشكوا إليه، فكتب إلى الوليد بن عقبة عامله على الكوفة :

"أما بعد، فإن العاقب والأسقف، وسراة نجران، أتوني بكتاب رسول الله وعقبي لهم في أرضهم، وأني أوصيك بهم، فإنهم قوم لهم ذمة"[3].

وذكر أبو يوسف[1]، نصًا آخر، لكتاب عثمان بن عفان : "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عثمان، أمير المؤمنين، إلى الوليد بن عقبة، سلام الله عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن الأسقف والعاقب وسراة أهل نجران الذين بالعراق، آتوني فشكوا إليَّ وأروني شرط عمر لهم، وقد علمت ما أصابهم من المسلمين، وإني قد خففت عنهم ثلاثين حلة من جزيتهم، تركتها لوجه الله تعالى، جل

الطبري، حـ 2، ص 534 : 535، ابن الأكوع : "الوثائق"، ص 161.

البلاذري : "فتوح البلدان"، ص 77، أبو عبيد : "الأموال"، ص 189.

البلاذري : "فتوح البلدان"، ص 77، أبو عبيد : "الأموال"، ص 189.

ثناؤه، وإني وفيت لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر، عقبى مكان أرضهم باليمن، فاستوصى بهم خيرًا، فإنهم أقوام لهم ذمة، وكان بيني وبينهم معرفة، وأنظر صحيفة كان عمر كتبها لهم، فأوفهم ما فيها، وإذا قرأت صحيفتهم فأرددها عليهم والسلام"، وذلك كان في منتصف شهر شعبان سنة 27[2].

* * *

ونحن لا تخالجنا إثارة من شك في أن كل الأحاديث التي تكررت في العهدة، أو في الكتابات حول البراء عن إيذاء "الكفار" وإلجائهم إلى أضيق الطرق، وعدم السلام عليهم.. إلخ، كلها تخالف مخالفة تامة خلق الرسول الذي كان يعيش في جواره فريق من أسوأ المنافقين مثل ابن أبي أُبي الذي قال "لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ "، ولما علم بذلك ابنه، وكان مؤمناً عميق الإيمان وقف في طريق أبيه يمنعه من الدخول حتى يقر أنه هو الأذل وأن الرسول هو الأعز، وعرض على الرسول أن يقتله، بدلاً من أن يقتله أحد المسلمين فيستشعر نحو شيئاً، فقال الرسول العظيم "بل نحسن صحبته"، ولما مات سأل ابنه الرسول أن يرسل إليه بردائه حتى يكفنه فيه، فلم يرفض الرسول ، بل قام وصلى على قبره حتى بعد نهى القرآن عن الصلاة على المنافقين، فإذا كان هذا هو مسلك الرسول تجاه ألد أعدائه، فهل يعقل أنه قال هذا الهراء الذي لا يصدر إلا من أسوأ فقهاء السلطان وحاشيته، وإذا كان الرسول يرفق على كبار مكة الذين اضطهدوه وعذبوا المؤمنين ولم يمسهم بأي أذى، بل منَّ عليهم بالحرية "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، فكيف يعقل أن يصدر منه مثل هذه الأحاديث، وهو الذي قال "من آذى ذميًا فأنا حجيجه يوم القيامة".

وكيف يمكن أن تصدر مثل هذه الوثيقة عن عمر وهو الذي كان يعفي العاجز من أهل الكتاب عن دفع الجزية، بل يجعل له ما يكفيه من بيت المال، وكيف يتفق مع حرصه على حق أهــل الكتاب، عندما رفض أن يصلي في جزء من الكنيسة حتى لا يطالب به المسلمون من بعده، ويقولون هنا صلى عمر، وأوصى سعد بن أبي وقاص أن يبعد معاركه عن أرض الصلح والذمة، وأن لا يسمح لأحد من أصحابه بدخولها إلا إذا كان على ثقة من دينه وحسن خلقه، وأن لا يأخذ من أهلها شيئاً لأن لهم حرمة وذمة يجب على المسلمين الوفاء بها ؟

وهل يمكن أن ينسى لعمر تأديبه لابن عمرو بن العاص عندما ضرب قبطيًا قائلاُ "أنا ابن الأكرمين"، فاستحضرهما عمر إلى المدينة وأعطاه السوط وقال اضرب ابن الأكرمين كما ضربك، فضربه وأراد منه أن يضرب عمرًا نفسه لأن ابنه ما كان يجترئ على هذا لولا نفوذ أبيه.

---

[2] **الخراج، ص 74، ابن الأكوع : "الوثائق"، ص 188.**

وأوصى عمر وهو يجود بروحه من يخلفه أن يفي بعهد أهل الذمة، وأن يقاتل من ورائهم، فلا يجعل ديارهم ميــداناً للحرب، وأن لا يكلفهم فوق طاقتهم.

كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يكتب أو يقبل العهد المهين، اللهم أن هذا إفك مبين ؟

وهكذا، فإن العهدة العمرية التي اعتمدها معظم الأسلاف كقاعدة في معاملة الذميين، تخالف الآيات العديدة من القرآن التي تأمر بالسماح وتتسم بالانفتاح وتسيطر عليها روح العفو والصفح واستخدام الحكمة والموعظة الحسنة، وتستبعد الغلو والشدة والتعصب، كما أن الآية 29 من سورة التوبة التي جاء بها تعبير الجزية "عن يد وهم صاغرون" لا تعني شيئاً مما ذهب إليه المفسرون المتأخرون، ولم يشر إليها أقل إشارة الطبري وهو أعظم المفسرين احتفالاً بالآثار والروايات، وفسر الصغار بأن يقدم الجزية من يقدمها وهو واقف بينما يكون من يستلمها جالسًا، وهذا ــ كما أشرنا ــ ما يحدث كل يوم مئات المرات في الإجراءات ما بين الشعب والإدارات الحكومية في معاملاتهم اليومية، أن يقف الطالب ــ ربما في صف طويل ــ بينما يكون الموظف جالسًا وراء شباك زجاجي.

والعهدة المزعومة تخالف ممارسات الرسول ، سواء في عهوده التي أعطاها نجران أو في توصياته خلال حياته، وعند موته عن الإحسان إلى من لهم عهد من أهل الكتاب.

* * *

لعل أعظم عامل يثبت زيف العهدة ــ أنها عمليًا ــ لم تطبق رغم أن وصول الدولة الإسلامية إلى مستوى الإمبراطورية، وما أصيبت به قيادات الحكم من خلفاء، أو ولاة وفساد النظام السياسي، ولأن معظمهم لم يكونوا من أهل البلاد التي يحكمونها، ولم يكن إيمانهم الإسلامي عميقاً.

نقول إن اضطهاد الأقليات يكون طبيعيًا، لأن الشعب نفسه مضطهد، وقد أراد الفقهاء إسباغ طابع شرعي على هذا الاضطهاد فاصطنعوا العهدة العمرية، وبهذا أوجدوا للطغاة تبريرًا شرعيًا، ولكن حدث رغم هذا أن الوعي الإسلامي كان حيًا، وكانت آيات القرآن التي تندد بالطغيان تتلى كل يوم في كل مسجد، ومن ثم فلم يصل ظلم المسيحيين واليهود إلى ما وصل إليه استعباد الشعوب المفتوحة في عهد الإمبراطورية الرومانية، بل إن هذا الوعي الإسلامي، وعددًا من العوامل الأخرى، كفل للمسيحيين واليهود وجودًا كوجود المسلمين، وفي بعض الحالات، فإن الأقليات ــ بحكم كونها أقليات ــ استطاعت أن تزحف على المجال الاقتصادي، وبالنسبة لمصر، فإن كل الولاة من عمرو بن العاص حتى محمد علي وجدوا أنفسهم مضطرين ــ إن لم يكونوا مختارين ــ لتولية الأقباط كل أعمال الجباية الزراعية، وضبط مساحات

الأراضي، وتقدير المحاصيل وتقدير ما يفرض عليها من ضرائب، والقيام بتحصيل ذلك، لأن الأقباط كانوا أكثر الجميع خبرة بهذا، وهي خبرة يتوارثونها عن آبائهم من جابي القرية حتى جابي الجباة الذي يكون بمنزلة وزير المالية.

وتثبت بعض المراجع التاريخية[1] أن كثيرًا من الأقباط كانوا يتبوأون مناصب رفيعة، كان لسياسة التسامح الديني التي اتبعها الفاطميون إزاء أهل الذمة أثرها الكبير عليهم كطبقة اجتماعية عاشت في المجتمع المصري، إذ كان منهم الوزراء والوسطاء وكبار رجال الدواوين، والكتاب والأطباء والمتقبلين، والضمان، والصناع المهرة، والتجار الأثرياء، والملاك أصحاب الضياع في مصر، ووصل الكثيرون منهم إلى مكانة اجتماعية سامية، فكانوا من الطبقة العليا في المجتمع ذات الصلة الوثيقة بالخلفاء الفاطميين الذين أجزلوا لهم الإقطاعيات والضياع والمنح والأموال والعطايا في شتى المناسبات، ووصل بعضهم إلى رئاسة الوزراء مثل يعقوب بن كلس الذي كان يهوديًا ثم أسلم.

وفي سنة 369هـ / 979م ولد للوزير ابن كلس ولد، فأرسل إليه العزيز بالله مهدا من صندل مرصع وثلاثمائة ثوب، وعشرة آلاف دينار، وخمسة عشر فرسا بسروجها ولجمها، منها اثنان لهبا، كما اشتملت الهدية على كثير من الطيب، وقد بلغت قيمة هذه الهدية مائة ألف دينار.

وقد أغدق الخلفاء الفاطميون على كثير من الأطباء من أهل الذمة ــ الذين سبقت الإشارة إليهم ــ الأموال والهدايا تشجيعا وتكريمًا لهم، وكان لبعضهم المكانة المرموقة من أصحاب القصر، وكما شمل الخلفاء أولاد أطبائهم بالرعاية فأطلقوا لهم الأموال الوفيرة والهبات فعاشوا في رغد من العيش.

وضم مجلس الخليفة المعز كبار رجال الدولة من اليهود والنصارى، إذا كانوا هم الطبقة التي اعتمد عليها في إدارة دواوين الحكومة، ففي عهده بلغ ابن كلس منزلة رفيعة في بلاط الخلافة وتولى الإشراف على الإدارة المالية في الدولة، وليس هناك أدل على علو المنزلة الاجتماعية لرجال الدولة منهم، من تلك العلاقة والصداقة التي وجدت بين العزيز بالله ووزيره ابن كلس، وفي كلمات العزيز لـه وقت احتضاره، ما يؤكد حب الخليفة لـه، ومكانته الاجتماعية وفي رسالة العزيز إلى طبيبه ابن مقشر ما يشير إلى علو منزلة الطبيب عند الخليفة وتقديره له.

كما أن الحاكم بأمر الله زار ابن مقشر عندما مرض، وأنعم على أولاده بالأموال والهبات بعد وفاته.

---

(1) اعتمدنا في هذه الفقرات على كتاب "أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول" للدكتور سلام شافعي محمود.

وجالس ابن نسطاس الطبيب النصراني الخليفة الحاكم بأمر الله، وشرب معه عندما أشار عليه بذلك، وكان من خواصه وندمائه، وواحد من القلائل الذين يفضي إليهم بأسراره، كما جالس ابن نسطاس كبار رجال الدولة الفاطمية أمثال قائد القواد الحسين ابن جوهر، وأبو الحسن الرسي، والمسبحي، والقاضي عبد العزيز ابن محمد بن النعمان، وكان يخالطهم، ويحضر مجالسهم الخاصة.

وامتلك كثير من أهل الذمة الأموال الهائلة والقصور الفخمة التي امتلأت بالخدم والعبيد، واكتظت بأثمن ما عرف في هذا العصر من موجودات وتحف وذخائر ومقتنيات.

فقد بلغت ثروة قزمان بن مينا عامل الخراج بفلسطين في عهد الخليفة المعز ما يزيد على تسعين ألف دينار، كما امتلك الوزير يعقوب بن كلس القطاعات والأموال، وكان قصره واحدًا من أعظم قصور القاهرة الفاطمية، ووجد في تركته بعد وفاته (ت 380هـ ـ990م) من الجواهر أربعمائة ألف دينار، ومن الملبوس والمركوب ما قيمته خمسمائة ألف دينار، ووجدا لـه من العبيد والمماليك التي اتخذها سكنا لحشيته وعبيده ومماليكه وحشمه ولما مات ابن كلس كفن بما قيمته عشرة آلاف دينار.

كذلك عرف عن عيسى بن نسطورس أنه كان محبًا لجمع المال فاتخذ من الوزارة وسيلة للثراء، وليس أدل على ثرائه الفاحش غير المشروع من تلك الغرامة التي بلغت ثلاثمائة آلف دينار، والتي دفعها إلى خزينة الدولة عندما غضب عليه العزيز بالله لسوء سياسته.

أما منشا بن إبراهيم القزاز اليهودي الذي كان عاملا على الشام، فقد جمع ثروة بالابتزاز، مما اضطر الخليفة العزيز إلى مصادرته، كما استحوذ فهد بن إبراهيم النصراني على كثير من الإقطاعات والضياع والأموال وبلغ راتبه السنوي ستة آلاف دينار.

وكان سهل بن يوسف أخ يعقوب بن كلس الوزير واسع الثراء، وعندما أمر الحاكم بأمر الله بقتله في سنة 394هـ/ 1003م بسبب طمعه وجشعه عرض أن يدفع ثلاثمائة ألف دينار عينا يفدي بها نفسه فلم يجب إلى ذلك.

ويحدثنا ناصري خسرو عن ثروة أبي سعيد التسترى بقوله أنه "يهودي وافر الثراء.... وقيل أنه لا يعرف مدى غناه إلا الله، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة، زرع في كل منها شجرة، كأنها حديقة، وكلها أشجار مثمرة"، وعندما قتل أبو سعيد كتب أخوه لما ملكه الفزع رسالة للخليفة المستنصر بأن يقدم فورا لخزانة الدولة مائتي ألف دينار، غير أن المستنصر بالله أمر بعرض الرسالة على الناس،

وتمزيقها، على الملأ، وخاطب الجميع قائلا : "كونوا آمنين، وعودوا إلى بيوتكم، فليس لأحد شأن بكم، ولسنا بحاجة لمال أحد".

كما يذكر ناصري خسرو أنه رأى بمدينة الفسطاط نصرانيا من كبار أغنياء مصر، قيل أن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد، وأن لدى هذا النصراني من الغلال ما يمكنه من إطعام أهل مصر "الفسطاط" ست سنوات. وعلى الرغم من أن ناصري خسرو كان مبالغاً فيما رواه، إلا أن في روايته الدليل القوي على ثراء الكثير من أهل الذمة في مصر الفاطمية.

وكان أبي المليح الملقب بمماتي واحدا من نصارى أسيوط الأثرياء، وأنه إمتلك أيام الغلاء والشدة العظمى في عصر المستنصر بالله قمحًا كثيرًا، وكان يوزعه على فقراء المسلمين الذين أحبوه وشكروه لحسن صنيعه.

ويذكر أبو صالح الأرمني أن واحدا من نصارى مصر ويدعى المعلم سرور الجلال ذا مال وجاه، وكانت علاقته وثيقة بالخليفة المستنصر وكان يقدم للخليفة وحاشيته أثناء الاحتفال بكسر سد الخليج أنواع الأطعمة والأشربة والحلوى فيقبلها منه، ويخلع عليه ويقضي حوائجه. أما المعلم اسحق الذي كان واحدا من كبار أثرياء التجار بمدينة قفط فقد امتلك من الأراضي والأموال والماشية الشيء الكثير.

ولم تكن الدولة تصادر ممتلكات وثروات وإقطاعيات كبار موظفيها من أهل الذمة طمعا فيها، وإنما كانت تصادر هذه الثروات بسبب سوء سياستهم الإدارية والمالية أو استفحال نفوذهم، وانحيازهم لبنى ملتهم، وجمعهم الثروات بطرق غير مشروعة أو بسبب ترفعهم وشكوى الرأي العام الإسلامي منهم.

وقد امتلك أهل الذمة ــ وبخاصة الأثرياء ــ الرقيق، ليعملوا خدما في القصور، فقد وجد في تركه ابن كلس أربعة آلاف عبد ومملوك، كما امتلأت قصورهم بالجواري والقينات، وكان اليهود المشتغلون في تجارة الشرق يشترون الجواري لاتخاذهم خدمًا لهم، ومن الجدير بالذكر أن زوجة العزيز بالله أم ست الملك كانت جارية رومية، كما كانت أم المستنصر بالله جارية لأبي سعيد ألتستري أهداها للخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، وكان من نتيجة اختلاط أقباط مصر بغيرهم من طوائف الشعب أن تهافت الأقباط ـ وخاصة الموظفين منهم ـ على تعدد السراري في بيوتهم بدون عقد شرعي، مما يتنافى مع روح الديانة المسيحية.

ونتيجة لهذا الثراء وتلك المكانة الاجتماعية، كان أهل الذمة يلبسون الملابس الجلية، وكان عمال النصارى يلبســون أثوابا كأثواب عظماء المسلمين، ويركبون البغال ويمتطون الخيول على أن الكثيرين من أهل الذمة كانوا يجعلون لأنفسهم مقاما عاليا أمام الطبقة الدنيا، وكانت مغالاتهم وترفعهم على هذه الصورة أمام جمهور

المسلمين تؤدي إلى ارتفاع أصوات المسلمين بالاستنكار، فتصدر أوامر الخلفاء الفاطميين بفرض قيود اجتماعية ضدهم ــ سنوضحها فيما بعد ــ وكانت هذه القيود تطبق بمنتهى الصرامة في حينها، ثم لا تلبث أن تخفف شيئا فشيئا، ولذلك كان الأمر يستلزم تكرار فرض تلك القيود في صورة مراسيم متتالية صادرة من دار الخلافة.

وقد أنعم الخلفاء الفاطميون على كبار رجال دولتهم من أهل الذمة بالألقاب تكريما لهم، ودلالة على مكانتهم في الدولة. فابن كلس الوزير لقب "بالوزير الأجل" ولقب عيسى بن نسطورس " بسيدنا الأجا"، أما ابن عبدون فقد منحه الخليفة الحاكم بأمر الله لقب "الكافي" كما أنعم على زرعة بن عيسى ابن نسطورس بلقب "الشافي" ولقب أخوه صاعد بن عيسى ابن نسطورس "بالأمير الظهير شرف الملك تاج المعالي ذو الجدين" أما المستنصر بالله الفاطمي فقد منح أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي اليهودي الأصل لقب "الوزير الأجل تاج الرياسة فخر الملك مصطفي أمير المؤمنين"، كما منح أبو علي الحسن بن أبي سعد ابن إبراهيم بن سهل التستري لقب "العميد عَلَم الكفاءة"، وخوطب أبو سعد منصور بن زنبور الوزير النصراني الأصل ـ في خلافة المستنصر ـ بلقب "الأجل الأوحد المكين السيد الأفضل الأمين شرف الكناة عميد الخلافة محب أمير المؤمنين".

ولا ينفي هذا أن يمارس الحكام بين الفينة والفينة صورًا من الاضطهاد وتطبيق ما تضمنته العهدة المزعومة، فنقرأ في المرجع السابق الذي تحدث عما وصل إليه بعض الأقباط من نفوذ "لكن الخليفة الحاكم بأمر الله بعد عدة سنوات من تولية الخلافة أصدر عددا من المراسيم والسجلات التي نصت على فرض قيود اجتماعية على أهل الذمة ــ باستثناء الخيابرة[1] ــ وتلزمهم بالتميز عن المسلمين بعلامات عرفت بالغيار، وذلك تنفيذاً لما اصطلح على تسميته "بالشروط العمرية"، ولكن الحاكم بأمر الله بالغ في هذه الشروط وزاد عليها، لذا اعتبر أهل الذمة عودة الحاكم إلى تطبيق هذه الشـروط وزيادته عليها امتحان لهم من قبل الله يذكرهم بما عانوه في عهود الاضطهاد السابقة، ذلك أن الحاكم بأمر الله قد أخذهم بالشدة في تطبيقها بالدرجة التي فاقت احتمال الكثيرين منهم.

ففي النصف الأول من شهر المحرم سنة 395هـ أصدر الحاكم بأمر الله سجلا ألزم النصارى، واليهود ـ دون الخيابرة ـ بشدة الزنانير في أوساطهم، ووضع العمائم السود على رؤوسهم ـ إذ كان السواد هو شعار العباسيين وهم العصاة في نظر الفاطميين ـ وأعلن هذا السجل في جوامع مصر، فامتثل لأمر الخليفة سائر أهل الذمة في أنحاء الدولة.

---

[1] **وهم يهود يرجع أصلهم إلى خيبر وما جاورها، الذين أمر عمر بن الخطاب بنقلهم من شبه الجزيرة العربية.**

وفي سنة 397هـ / 1006م اشتدت القيود صرامة، ففي هذا العام أمر النصارى، واليهود ــ دون الخيابرة ــ بلبس السواد، وأن يحمل النصارى الصلبان في أعناقهم، وأن يحمل اليهـــود في أعناقهم قرامي الخشب والجلاجل.

وفي العام التالي أخذ الحاكم بأمر الله أهل الذمــة بالشدة فيما يتعلق بالغيار، واشترط على من يقيم في دولته منهم في مصر أن يلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زاد فيها على الشروط العمرية، فشرط على النصارى تعليق الصلبان ظاهرة، وعلى اليهود قرامي الخشب على هيئة رأس العجل. فاتخذ النصارى صلبان الذهب والفضة، فأنكر الخليفة ذلك، وأمر المحتسبين أن يأخذوا النصارى بتعليق صلبان الخشب واليهود بتعليق القرامي، كما أمر بالنداء في أهل الذمة بأنه من أراد الدخول في الإسلام فله ذلك، ومن أراد الانتقال إلى بلاد الروم كان آمنا إلى أن يخرج، ومن أراد المقام بمصر فعليه بلبس الغيار والالتزام بما شرط عليه، فاضطر كثير من أهل الذمة تحت وطأة تلك القيود الصارمة إلى الدخول في الإسلام.

كما نودي في سنة 399هـ / 1008م بأن لا يمشى اليهود والنصارى إلا بالغبار والا ضربوا على ذلك. ويذكر المقريزي أنه في سنة 400هـ / 1009م اشتد الأمر على أهل الذمة في إلزامهم لبس الغيار. وفي العام التالي أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة إلزامهم لبس الغيار. وفي العام التالي أمر الحاكم بأمر الله أن تؤخذ الذمة من النصاري واليهود بتغيير الزنانير الملونة التي يلبسونها والاقتصار على لبس الزنانير السود فقط دون غيرها من الألوان مع وضع العمائم السود على رؤوسهم.

وفي سنة 402هـ / 1011م أمر النصارى واليهود ــ دون الخيابرة ــ بلبس العمائم السود، وأن تحمل النصارى في أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعا ووزنه خمسة أرطال، وأن تحمل اليهود في أعناقهم عند خروجهم إلى الأسواق قرامى الخشب على وزن صلبان النصارى.

ويذكر ابن إياس أن الخليفة الحاكم بأمر الله الزم النصارى أن تكون الصلبان من حديد بطول ذراع وأن يلبسوا المآزر الفسيحة، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم إلى ما كانوا عليه.

وجدد الحاكم بأمر الله هذا المرسوم في سنة 403هـ / 1012م، فأمر أن تلبس النصارى واليهود ــ دون الخيابرة ــ طيالسة سود، وعمائم شديدة السواد وأن يعلق النصارى في أعناقهم صلبــان الخشب مضافا إلى الزنار في أوساطهم، فلبسوا صلباناً طولها فتر، ثم أمر بعد شهر وجعلها قدر شبر في شبر، فلما كان يوم الأحد النصف من شهر ربيع الآخر من نفس العام أمر النصارى بتعظيم الصلبان التي في رقابهم، وأن يكون طولها ذراع في عرض مثله، وفتحها ثلثي شبر وسمكها إصبع، غير أن الأنبا ميخائيل ذكر أن طول الصليب كان ذراعا ونصفا على أن يكون وزن كل صليب خمسة أرطال مختوم بخاتم رصاص عليه اسم الخليفة، وأن يعلقوه في رقابهم من ليف. كما

نودي على اليهود بأن يعلقوا في رقابهم قرامي الخشب على هيئة رأس عجل زنة كل منها خمسة أرطال تعلق في رقابهم بحبال من ليف وتختم بخاتم من رصاص عليه اسم الخليفة الحاكم، وعلى أن تكون هذه الصلبان والقرامى ظاهرة فوق ثياب أهل الذمة عند خروجهم إلى الأسواق بحيث يراها الناس وأذن للناس في البحث عن المخالفين وتتبع آثارهم، مما أثار الفزع بين النصارى وكثرت مخاوفهم، وخلت الطرقات أياما لم ير فيها نصراني، وإذا وجد واحد من أهل الذمة عليه صليب أو قرمة بغير ختم كان يتعرض للإهانة والغرامة، مما أدى إلى أن ضاق أهل الذمة ذرعا بتلك القيود التي فرضت على الملابس. ويروى الأنبا ميخائيل أن نصارى مدينة تنيس ذاقوا الأمرين من تلك القيود، ومن مضايقات المسلمين لهم، فإذا نسى نصراني منهم صليبه ومشى في طرقات المدينة بلا صليب تعرض للأذى ولقي كثيرًا من الإهانة والسخرية.

غير أنه قد خفف من تلك القيود تصريح الحاكم بأمر الله لرعاياه من أهل الذمة في صفر سنة 404هـ بالانتقال إلى بلاد الروم أو النوبة أو الحبشة، أو التزام الغيار إذا رغبوا في البقاء، كما لجأ الكثير من النصارى تحت وطأة تلك القيود وصرامتها إلى نزع الغيار والصليب والزنار والتشبه بالمسلمين، والتظاهر بالإسلام ليظن من يراهم أنهم قد اعتنقوا الإسلام.

كما شملت سجلات الخليفة الحاكم بأمر الله التي أصدرها بشأن أهل الذمة عدة قيود فرضت عليهم عند دخولهم الحمامات.

ففي سنة 398هـ /1007م و 1008م، أمر الحاكم بأمر الله أن يتميز أهل الذمة عند دخولهم الحمامات بعلامات تميزهم عن المسلمين وذلك بأن يتميز النصارى بصليب يعلقونه في رقابهم، وأن يتميز اليهود بجلجل مكان الصليب، كما نودى ألا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر، وأخذوا بالشدة والضرب في تنفيذ تلك الأوامر، كما كبست الحمامات للتأكد من مراعاة ما جاء بتلك السجلات، غير أنه لم تلبث تلك الأوامر أن زالت بعد مدة، ولم يعد أهل الذمة يكترثون بتنفيذها.

وفي المرسوم الذي أصدره الحاكم سنة 402هـ /1011م أكد ما سبق أن أصدره من أوامر بشأن الحمامات، ثم أفرد حمامات اليهود وحمامات النصارى من حمامات المسلمين، وأمر ألا يدخل أحد من أهل الذمة حماما مع المسلمين وأصبحت لهم حمامات خاصة ـ كذلك الحمام الذي أنشأة ابن أبي الدم اليهودي كاتب الإنشاء في عهد الحاكم ـ ووضع على حمامات النصارى الصلبان الخشب وعلى باب حمامات اليهود القرامي الخشب، كعلامات مميزة تعرف بها، مع التزامهم بتعليق الصلبان والقرامى الخشب في رقابهم عند دخولهم الحمامات. وتأكد ذلك مرة أخرى في المرسوم الذي أصدره في سنة 403هـ / 1012م، كما تكررت تلك القيود في المرسوم الصادر من دار الخلافة في شهر المحرم من السنة التالية.

أما فيما يتعلق بالركوبات، فإنه طوال خلافة المعز لدين الله وابنه العزيز لم تفرض على أهل الذمة أية قيود تتعلق بذلك، كما نعموا بحرية استعمالها في بداية خلافة الحاكم بأمر الله، فقد كانوا يركبون الخيل وخاصة أثناء الاحتفال بأعيادهم، واهتم الأثرياء وكبار رجال الدولة من أهل الذمة باقتناء الخيول والبغال، وكانت لهم الاصطبلات المعـدة لتربيتها، ويذكر المقريزي أن فهد ابن إبراهيم النصراني كان يمتلك العشرات من الخيول والبغــال، وأنه حمل إلى الخليفة الحاكم بأمر الله هدية منها ثلاثون بغلة ملونة الأجلال، وعشرون فرسًا منها عشرة مطهمة باللجم والسروج المحلاة وعشرة خيول تكسوها أجلال ملونة فاخرة، كما أن الحاكم بأمر الله صرح لأولاد فهد في شعبان سنة 392هـ باسترداد ما أخذ منهم من سروجهم المحلاة بالذهب، وأمرهم بالركوب، وعندما خلع الحاكم بأمر الله في ربيع الأول سنة 394هـ على أبي يعقوب ابن نسطاس الطبيب، حمله على بغلين ومعه الثياب الفاخرة، ولما توفى ابن نسطاس استطب الحاكم بأمر الله صقر اليهودي (ت400هـ / 1009م) وخلع عليه في سنة 398هـ /1007م، وحمله على بغلة محلاة بالسرج واللجام الفخمة، وأهداه ثلاث بغلات بسروج ولجم ثقال.

غير أن سجلات الحاكم بأمر الله التي أصدرها لفرض بعض القيود على أهل الذمة شملت أيضا قيودا على الركوبات ففي سجلاته الصادرة في سنتي 402هـ / 1011م و 1012م منع أهل الذمة من ركوب الخيل، وأمر أن تكون ركوبهم البغال والحمير وبسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة، وأن تكون من جلود سود وألا يركب أحد منهم بركب حديد بل تكون ركب سروجهم من خشب الجميز، وأمر أيضا أن يضرب بالجرس في القاهرة ومصر (الفسطاط) ألا يركب أحد من المكارية المسلمين ذميًا، كما منع الملاحين وأصحاب السفن المسلمين أن يحملوا على سفنهم أحدا من أهل الذمة.

الغريب أن الحاكم بأمر الله نفسه أقلع على هذه الممارسات وأعفى أهل الذمة منها، وأذن لهم ببناء الكنائس، بل وقبل أن يعود الأقباط الذين أسلموا فرارًا من الاضطهاد العودة إلى المسيحية مرة أخرى عندما وقفوا في طريقه وذكروا له رغبتهم تلك فسمح لهم بها.

وكان ذلك هو شأن اليهـــود أيضًا، فقـد عاد الكثير إلى دينهم اليهودي بعد تسامح الحاكم، ويقول ابن زولاق "أن من ارتد عن الإسلام أكثر من سبعين ألف يهودي، وعادوا إلى دينهم القديم في يوم واحد".

ومما لا يخلو من مغزى أن هذه الأحكام صدرت في خلافة الحاكم بأمر الله الذي عرف بشذوذه، ولاقى المسلمون أيضًا كثيرًا من القيود والتحريمات على يديه".

* * *

كما يجب أن نذكر أيضًا أنه بجانب هذه الصور من الإعنات، فقد وجدت صور أخرى تسلط فيها الأقباط واليهود على المجتمع حتى ضجت الناس وسارت المقاطع الشعرية تتغنى بعز النصارى واليهود وذل المسلمين.

وفي الفترة التي تقلد فيها عيسى بن نسطورس، ومنشأ ابن إبراهيم إدارة الدواوين في مصر والشام، أصبح هاتين الملتين يحكمان الدولة[1]، ولحق بالرعية من جراء تنصير الدواوين في مصر وتهويدها في الشام الضرر البالغ، مما دفع المسلمين إلى التذمر والاحتجاج إزاء سياسة هذين الرجلين اللذين أساءا إلى الرعية[2]، ولعل فيما أورده الأنطاكي عن عيسى بن نسطورس من أنه : "قد رسم أيام نظره رسومًا جائرة وأحدث مكوسًا زائدة على ما جرى الرسم بأخذه"[3]، ما يوضح النتائج السيئة التي عانت منها الرعية بسبب ازدياد نفوذ الرؤساء النصارى وسيطرتهم على إدارة الدولة في عهد الخليفة العزيز بالله.

بل تفاقم الخطر والأذى الذي حق بالمسلمين في مصر والشام، وذلك لأن معظم السلطة والنفوذ كانت في أيدي أبناء هاتين الطائفتين الذين جاهروا بروح العداء إزاء المسلمين[4].

ويروي لنا النويري أن بعض رؤساء المصريين كتب ورقة يعاتب فيها عيسى على قبح فعله مع المسلمين، وبالغ فيها، فأجابه عيسى عنها بقوله : "إن شريعتنا متقدمة، والدولة كانت لنا، ثم صارت إليكم، فجُرتم علينا بالجزية والذلة، فمتى كان منكم إلينا إحسان حتى تطالبونا بمثله، إن مانعناكم قاتلتمونا، وإن سالمناكم أهنتمونا، فإذا وجدنا لكم فرصة فماذا تتوقعون أن نصنع بكم" ثم تمثل في آخرها ببيتين :

بنت كــرم غصبوها أمها   ثم داسوها هوانا بالقـــــدم
ثم عادوا وأحكموها فيهم   وأناهيــك بخصم قد حكم[5]

ورغم أن النويري قد انفرد بذكر هذه الرواية، فإن معالم السياسة التي سار عليها ابن نسطورس في مصر وابن القزاز في الشام تؤكد روح التعصب السائدة بين كبار الموظفين من اليهود والنصارى في تلك الفترة، الذين عملوا على التمييز بين أبناء الأمة الواحدة، وتفتيت الوحدة الوطنية بين أبناء الشعب الواحد، الأمر الذي دفع المسلمين إلى التذمر والاحتجاج.

وتنقل لنا المصادر التاريخية رواية خلاصتها أن امرأة اعترضت ــ ذات مرة ــ طريق العزيز بالله ودفعت إلى مرافقيه برقعة، واختفت بين الناس، فأخذ العزيز بالله

---

(1) **Mann : op. cit., vol. 1, p 19.**
(2) **العيني، المصدر السابق، حـ 19، ورقة 466.**
(3) **الأنطاكي، المصدر السابق، ص 180.**
(4) **ابن اياس : "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، بولاق 1311 هـ، الجزء الأول، ص 48.**
(5) **النويري، المصدر السابق، حـ 26، ورقة 50.**

الرقعة ونظر فيها، فإذا هي ظلامة جاء فيها : "يا أمير المؤمنين : بالذي أعز النصارى بابن نسطورس، وأعز اليهود بمنشأ بن إبراهيم، وأذل المسلمين بك، ألا نظرت في أمري وكشفت ظلامتي"[1]، ولما طلب العزيز بالله المرأة لم يجدها، ولما رجع إلى قصره استدعى قاضي قضاته أبا عبد الله محمد بن النعمان، وكان من خاصته ومن المقربين إليه، فأعطاه ظلامة المرأة، وطلب منه إبداء الرأي، فقال ابن النعمان : "مولانا أعرف بوجه الرأي والتدبير"، وتحرج أن يذكر له ما آلت إليه إدارة البـــلاد من سوء بالغ من جانب كبار الموظفين من أهل الذمة، فنظر إليه العزيز بالله وقال : "صدق كاتبها، ونبهنا إلى ما كنا على غلط فيه وغفلة عنه"[2]، ثم أصدر أوامره بالقبض على ابن نسطورس والكتاب النصارى، كما ألقى القبض على منشأ بن إبراهيم وجباة الضرائب اليهود في الشام، وأمر بإسناد وظائف الدولة وإدارة أجهزتها إلى الكتاب المسلمين، وألا يعين أحد من أهل الذمة في الدواوين[3].

وتمضي بعض المصادر التاريخية في سرد وقائع هذه الرواية، فتذكر أن ست الملك بنت الخليفة العزيز بالله تدخلت لدى أبيها، وعرضت عليه التماسًا تقدم به عيسى بن نسطورس يعتذر فيه عما بدر منه، فأعاده الخليفة إلى منصبه بعد أن دفع غرامة قدرها ثلاثمائة ألف دينار إلى خزانة الدولة وبعد أن شرط عليه استخدام الموظفين المسلمين في دواوين الدولة وأعمالها، وألا يعين نصرانيًا ولا يهوديًا بهذه الدواوين[4].

وتكاد تجمع المصادر الإسلامية[5] على ذكر هذه الرواية الخاصة بعيسى بن نسطورس بصورة أو بأخرى، بينما أغفلت المصادر النصرانية ذكرها، وتفسير ذلك واضح لا يحتاج إلى دليل.

وإذا كان الحاكم بأمر الله قد قبض على فهد بن إبراهيم النصراني وقتله في جمادى الثاني سنة 393 هـ، فإن ذلك يرجع إلى أن أبا طاهر النحوي الكاتب استطاع أن يبلغه شكوى الرعية من تضافر النصارى وغلبتهم على الدولة، وتعصبهم، وأن فهدًا هو الذي يقوي شوكتهم، ويسند إليهم أمر الأموال والدواوين، وأنه "آفة على المسلمين وعدة النصارى"[6].

---

[1] **النويري، المصدر السابق، جـ 26، ورقة 49.**
[2] **ابن ظافر، المصدر السابق، ورقة 55.**
[3] **أبو شجاع، المصدر السابق، ص 186، ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 33.**
[4] **سبط بن الجوزي، المصدر السابق، جـ 11، ورقة 154.**
[5] **سبط بن الجوزي، المصدر السابق، جـ 11، ورقة 154.**
[6] **المقريزي "الخطط"، جـ 2، ص 30.**

وفضلاً عن ذلك فإن أبا تغلب ـ أخ فهد ـ متولي ديوان النفقات كان شريرًا مكروهًا من الرعية لسوء سياسته، مما أدى إلى مقتله هو الآخر بعد مقتل أخيه فهد بمدة قصيرة[7].

أما أبو سعيد التستري اليهودي (ت 439هـ/1047م) الذي كان مدبر أمور الدولة في الأيام الأولى بوزارة الفلاحي في خلافة المستنصر بالله فقد استغل نفوذه وصلته بقصر الخلافة، وألحق بمناصب الدولة الكثير من اليهود، وولاهم الوظائف الكبرى، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل نال المسلمون كثيرًا من الظلم والأذى على يديه، بحيث أنهم كانوا يحلفون "بحق النعمة على بني إسرائيل"، مما دفع الشاعر المعاصر الرضي بن البواب أن قال :

يهـــــــود هذا الزمان قد بلغوا غايــــــــة آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عنــــــــدهم ومنهم المستشـــــار والملك

يا أهل مصر إني نصحت لكم تهودوا قد تهــــــود الفلك[1] (*)

وقد كان الخليفة العزيز بالله متزوجًا من سيدة رومية نصرانية وابنته منها ست الملك، وكان لهما تأثير عظيم عليه.

وقد كان معظم أطباء الخلفاء في الخلافة العباسية وفي الخلافة الفاطمية من اليهود أو المسيحيين، ويلقون منهم حفاوة بالغة.

وفي الأندلس نجد صفحة ناصعة من حسن معاملة اليهود، فقد وصل اليهود والمسلمون إلى درجة من التسامح، والتلاقي، والتلاقح يندر أن تجد لـه مثيلاً، وكان موسى بن ميمون طبيب صلاح الدين وعالم اليهود الأشهر يكتب بالعربية ويبدو مسلمًا في القاهرة ويهوديًا في الأندلس، وكان في جميع الحالات محل الاحترام والتقدير.

"وكان يهود أسبانيا قبل دخول العرب يتعرضون لاضطهادات عديدة، وفي سنة 694 قرر الملك راجيكا أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الأسبانية وأن تحول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضي عليهم بالرق الأبدي للنصارى، وأن يهبهم الملك عبيدًا لمن يشاء، وأن لا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية، وأن لا يتزوج يهودي بنصرانية، وهكذا

ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 60.

ابن ميسر، المصدر السابق، جـ 2، ص 2.

(*) ننوه بأن كل ما جاء في هذا الفصل عن أهل الذمة مقتبس من كتاب "أهل الذمة في العصر الفاطمي الأول"، تأليف د. سلام شافعي محمود.

عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف، فكانوا قبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلم لا يطاق، وكانوا يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر، ويرون في أولئك الفاتحين الذين يتركون للناس حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة، ملائكة منقذين[2].

ولذلك لم يكن غريبًا، حين عبر طارق بن زياد بجيوشه إلى أسبانيا، أن "اليهود كانوا يعاونون المسلمين في تلك الفتوح"، وعندما وصل طارق بن زياد بجيوشه إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس، كان القوط قد فروا، ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فاستولى طارق عليها، وأبقى على من بقي من سكانها، وترك لأهلها الكنائس، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية.

يقول المؤرخ لين بول "أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى ! بينما كانت أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية".

وكانت سوق الكتب في قرطبة من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة، وسرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود، بعد أن شاعت اللغة العربية بينهم، وكان كثيرون منهم يتذوقون ثمرات التفكير العربي من أدب وشعر وفلسفة وغيرها، وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودي حسداي "طبيب الحكم الخاص"، وفي ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية، وألفوا بها مختلف الكتب، وكان من أشهر المكتبات الخاصة فيما بعــد مكتبة يوسف بن إسماعيل بن نغرالة اليهودي، وزير باديس أمير غرناطة.

وفي بحث حديث جدًا، منشور منذ شهور قليلة، للكاتب الإسرائيلي "الفريد مورابيا" عنوانه "الثقافة اليهودية في أسبانيا الإسلامية"، نجده يعطينا تقريبًا نفس الصورة.

ويستهل "الفريد مورابيا" دراسته بكلمة للأستاذ ج. فاجولا، يقول فيها "لم يحدث طيلة العصور الأولى وحتى آخر القرون الوسطى أن حققت اليهودية المبعثرة ذاتها في بيئة غير يهودية، كما فعلت في أسبانيا، يقصد بذلك العصر الأندلسي الإسلامي هناك.

ومعظم هذا البحث، يقدم لنا ما يشبه القائمة الطويلة لأسماء أهم اليهود الذين ترعرعوا في ظل الدولة الإسلامية في الأندلس وتأثروا بها وتركوا لليهود أهم تراثهم.

(**وقد كان هذا هو حال أقباط مصر قبيل دخول عمرو بن العاص، إذ تعرضوا لاضطهاد البيزنطيين الذين كانوا يحكموا مصر، ومع أنهم كانوا مسيحيين، لكن من مذهب آخر فشتتوا شمل الأقباط وهرب البابا إلى الصحراء، ولما دخل عمرو بن العاص استقدم البابا وأعطاه سلطاته كاملة، وعادت الكنيسة القبطية، وتمتع الأقباط بحريتهم الدينية.**

وهو يركز ــ من باب الاختصار ــ اختياره في مجالات أربعة هي : (الدين، واللغة، والشعر، والفلسفة)، والقائمة طويلة جدًا، فنجد مثلاً :

- إسحق الفاسي، الذي ولد في قلعة حماد" بالقرب من قسطنطينة "الجزائر الآن"، واستمد اسمه من فاس التي عاش فيها معظم عمره، وتلقى دروسه في القيروان، وعاش حتى الخامسة والسبعين من عمره بين المغرب والأندلس، يقول المؤلف الإسرائيلي إنه من أهم من فسروا التلمود، ونشـــر تعاليمه بين تلاميذه مثل يوسف بن ميجاش ويهوذا هالفي، وافرايم الحمادي "نسبة لقلعة بن حماد"، وباروخ بن الباليه، وكان يرسلهم إلى أنحاء العالم الإسلامي حيثما وجد مجتمع يهودي لنشر تعاليمه.
- مناحم ابن ساروق، صاحب أهم قاموس عبري تلمودي إلى الآن، والوحيد الذي كتب قاموسًا حتى ذلك الوقت بالعبرية مباشرة، إذ كان معظم الكتاب اليهود يكتبون بالعربية، ثم تترجم بعض أعمالهم إلى العبرية.
- دوناش بن الأبرط، الذي ولد في بغداد، وتتلمذ على يد "سعيد بن جاعون"، ثم جاب العالم العربي حتى استقر في فاس، وكان لغويًا وشاعرًا.
- يهودا بن داود، الذي يعتبر مؤسس قواعد اللغة العبرية باللغة العربية، وترجمت بعد ذلك، واستعان بكثير من قواعد اللغة العربية في وضع قواعد جديدة للغة العبرية.
- موسى بن عزرا، أحد أهم الشعراء العبرانيين، وأهم مؤلفاته اسمه بالعربية "كتاب المحاضرة والمذاكرة".
- يهودا الحريزي الذي وصفه المؤلف بأنه كان يسافر كثيرًا بين الأندلس، ومصر، وفلسطين، وسوريا، وما بين النهرين (أي العراق)، يقدم أعماله الفنية والفكرية لكل مجتمع يهودي، وهو أول من أخذ شعر "المقامات" من العرب واستخدمها باللغة العبرية.

وفي مجال الفلسفة يقول الباحث الإسرائيلي إن الأندلس الإسلامية كما أعطت للعالم ابن طفيل وابن رشد وغيرهما، فقد تربى ونشأ في أعقابهم أهم فلاسفة اليهودية مثل "باهي باقودة" الذي ألف أحد أهم كتب الفلسفة اليهودية بعنوان "كتابة الهداية إلى فرائض القلوب ولم يترجم كتابه إلى العبرية إلا بعد مائة سنة من تأليفه.

إلى آخره.. إلى آخره.

وإذا عدنا بعد ذلك إلى "ابا ايبـــان" المؤرخ والسياسي قبل أن يكون أستاذ تاريخ، نجده لا ينكر شيئاً من هذا في الأساس، بل يقول في كتابه "قصة اليهــود" أن اليهود لم يعرفوا درجـة من الازدهار وتحقيــق الذات طوال التاريخ كله إلا مرتين، مرة في الولايات المتحدة الأمريكية، ومرة في الأندلس الإسـلامية منذ قرون، انتهى الاقتباس من كتاب العربي عن الأستاذ أحمد بهاء الدين.

وكان للجالية اليهودية ــ كما يقول أحــد المؤلفين ــ في بغداد مظهر الدولة، وكان لها دستور خاص، وكان رئيس الجالية اليهودية في بابل يطلق عليه اسم "رأس الجالوت"، وكان عميد الأكاديمية الدينية اليهودية يطلق عليه اسم "الجاعون" والاثنان يتساويان في المرتبة، كان منصب "رأس الجالوت" منصبًا سياسيًا، وشاغله يمثل اليهودية البابلية ــ الفارسية تحت الخلافة، وكان يجبي الخراج من مختلف الملل ويدفعه للخزانة، وشاغلوا هذا المنصب أمراء في تصرفهم، أمراء في أسلوب حياتهم، يتنقلون في عربات فارهة، في مواكب يتقدمها حجاب يمتطون صهوات الجياد، وكان يحف بهم رجال أشبه بالحرس ويلقون فروض الولاء والتوقير التي تقدم للأمراء.

ولأن "رأس الجالوت" كان يقابل في كل مكان بمظاهر الإجلال التي كان يقابل بها الأمراء كان تنصيبه في مركزه يتم في احتفال مهيب وأبهة في ساحة كبيرة مكشوفة وسط الزينات الباهرة، وينصبـ كرسي له وكرسي لكل من رئيسي الأكاديميتين اليهوديتين، وكان جاعون "سورا" Sora [1] يلقي خطابًا أمام من كان سيعين "رأس الجالوت" يذكره فيه بواجبات منصبه، وكان كلا الرئيسين يضع يده على رأس المرشح للمنصب ويهتف وسط نفير الأبواق "يحيا سيدنا أمير المنفى".

وقد كتب هذا أحد الكتاب اليهود المشهورين "جرانس" يؤيده كتاب آخرون مثل "مار جوليس"، "وماركس"، و "هر شبرج"ـ و "باشان"، وكذلك "جويتاين" الذي قال : " إن رأس الجالوت كان تحت الخلافة العباسية يشغل منصبًا رفيعًا باعتباره الممثل العام للجالية اليهودية، ويستفاد من أحد المصادر المسيحية أنه كان يتمتع في بلاط الخليفة بمرتبة أعلى من مرتبة أعيان النصارى، ولكنه لم يكن يضطلع كقاعدة عامة بأية وظيفة إدارية في الدولة الإسلامية، وكان المسلمون حين يخاطبونه يلقبونه بـ "سيدنا ابن داود"، ولما كان القرآن يعتبر داود واحدًا من أعظم الأنبياء كان طبيعيًا أن يحاط منصبه بهالة من التبجيل.." [2].

إن تقصي تاريخ علاقة الحكم الإسلامي بالذميين ــ من يهود أو مسيحيين ــ يوضح لنا أن العهدة العمرية المزعومة كانت من وضع بعض حاشية السلاطين أرادوا التقرب بها إليهم، وأن هؤلاء السلاطين رغم خضوعهم لإفساد السلطة، خاصة في حكم سلطوي ووراثي، لم يستخدموها إلا في حالات محدودة، ولأسباب معينة لأن روح العدالة والسماح الإسلامي كانت من القوة بحيث كبحت جماح الظلم السلطوي، فلم يمارس إلا في حالات معينة ولأسباب معينة، كان منها مكايد كانت تنسج لدي الحكام من أفراد حاسدين أو خائفين، ومنها ثورة الجماهير المسلمة إزاء مظاهر الثراء والسلطة التي كان يبديها أفراد من الذميين نالوا حظوة السلاطين، وفي هذه الحالة

---

[1] **"سورا" موضع بالعراق من أرض بابل (مدينة السريانيين)، وهي قريبة من الوقف والحلة المزيدية، معجم البلدان (المترجم).**

[2] **"محمد واليهود" تأليف د. بركات أحمد، ترجمة محمود علي مراد، ص 25 ــ 27 " الهيئة العامة للكتاب".**

كان السبب الحقيقي لتذمر المسلمين ماديًا، اقتصاديًا، وليس طائفيًا أو دينيًا، ومنها ما ألفه الحكام في ذلك الزمان من مصادرة الأغنياء من رعيتهم ولو كانوا وزرائهم، وكانت الأقليات من المسيحيين واليهود في طليعة الذين ظفروا بالثراء نتيجة لاشتغالهم بالتجارة وغيرها، ولمواهبهم الخاصة، وأخيرًا فلا جدال أنه في سلسلة حكم سلطوي لألف عام لابد أن يوجد حكام ظلمة يعمدون لتقديم كبش فداء لتبرير ظلمهم.

ولكن هذه الصفحة ــ رغم ما وجد بها من بقع سوداء ــ كانت أفضل بمراحل مما كان يصنع في أوروبا، حيث سادت نظرية "ديانة الملك"، فأي فرد أو مجموعة تخالف دين الملك كانت تستؤصل دون هوادة حتى لو كانت مذهبًا مختلفاً كالكاثوليك والبروتستانت، ولما حكم الأسبان الأندلس استؤصل المسلمون واليهود أو أخرجوا من بلادهم، وعندما انتصر الصليبيون في بيت المقدس قتلوا أكثر من ثلاثين ألفاً في بيت المقدس حتى غاصت سيقان الخيـل في الدماء.

* * *

رأينا أن نصوص القرآن الكريم والسُـنة النبوية وأعمال الرسول ، وسياسات أبي بكر وعمر تخالف مخالفة تامة "العهدة المنسوبة لعمر"، ورأينا عمليًا وواقعيًا أنها لم تطبق إلا في حالات لها طابع الاستثناء والنشوز، وأن الحالة الطبيعية والمقررة كانت رعاية أهـل الذمة وعدم المساس بهم عمليًا وأدبيًا، وأن المحافظة على كراماتهم كانت مثل المحافظة على أموالهم وحقوقهم، وأن الكثيرين منهم ظفروا بمراكز مرموقة في الدولة الإسلامية مع مصر، وبغداد.

وأن وضع المسيحيين واليهود في ظل الدولة الإسلامية خضع لما خضع له المسلمون أنفسهم، لأن عسف الحكام كان يشملهم جميعًا، وكان على أسوءه في عهد الخليفة المتوكل في بغداد، وعهد وعهد الحاكم بأمر الله في مصر، ولم يصدر السلطان الناصر محمد قلاوون مرسومه بتطبيق العهدة العمرية إلا بعد حادثة وزير ملك مراكش الذي زار القاهرة سنة 700 هـ (1301)، واحتج على ما يتمتع به أهل الذمة، وقارن بين أحوالهم في المغرب، فتحمس قلاوون وأصدر مرسومه، كما خضع لمقتضيات الدولة الإمبراطورية وروح العهد من ناحية الذي سمح بذيوع وانتشار "عهدة عمر" رغم أنها محض اختلاق حتى نظمها بعضهم شعرًا، وبين السماحة التي هي أصل من أصول الإسلام، وأن السكان كانوا رغم كل ما يحيط بهم هم الذين يمارسون العمل والإنتاج، وهذا ما يعطيهم قوة في مواجهة الحكام، وهو السر في أن أحكام التمييز الصارخة كانت تتوارى ولا تطبق في معظم الحالات، وأنه بالنسبة لمصر بوجه خاص، فإن طبيعة السماحة كانت غالبة وأنها صفة أصيلة في مصر تصيب أهلها كما تصيب كل من يدخلها أو يتصدى لحكمها نتيجة لهذه العوامل المتعارضة، فإن الباب لم يكن مفتوحًا لعسف الحكام أو استبدادهم بالأمر، وأن الوجه الإمبراطوري للدولة الإسلامية كان أقل قبحًا من الوجه الإمبراطوري لروما، أو فارس.

* * *

ولكن هذا لا ينفي أن نختم الفصل بالتفنيد "الفني" للعهدة كما سيقت وكما تضمنتها المراجع التراثية، وهذا ما قان به عدد من المفكرين الإسلاميين، لعل أبرزهم الدكتور عبادة عبد الرحمن كحيلة.

تحرى الدكتور كحيلة وجود " الأصل" الذي كتبت عليه الوثيقة، فقال : "إن هذا العهد يقع على تخوم التاريخ الإسلامي والفقه الإسلامي مما يجعله يتسع لعمل المؤرخ والفقيه، وأعاد الدكتور كحيلة سبب أو أسباب فقدان الوثائق الأصلية لفترة النبوة والخلفاء الراشدين، إلى حرق الديوان إبان ثورة عبد الرحمن الأشـعث ومعركة دير الجماجم سنة 82 هـ، وفي ذلك يقول أبو يوسف : "فلما كانت الجماجم أحرق الناس الديوان فذهب ذلك الأصل ودرس [اندثر]"، وهذا جعل الوثائق الأصلية التي بين أيدينا نادرة والوثائق المنتحلة وفيرة.

يقول عبادة أن مواقف المؤرخين المحدثين تراوحت بين القبول بنسبة هذا العهد إلى عمر وإنكار هذه النسبة فمن بين من قبلوا هذا العهد المؤرخ الأسباني سيمونيت F. J. SIMONET، كما قبل به بعض المؤرخين العرب وتعجبوا من إنكار البعض له أو "الاعتذار لأهل الكتاب عما حصل من الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من وضع الشروط على أهل الذمة، وصدق الفاروق إذ قال : "لا تَعزّوهم وقد أذلهم الله"، كما ذكر بعض المؤرخين الذين أنكروا نسبة هذا العهد إلى عمر أولهم موير MUIR وآخرهم تريتون A. S. TRITTON الذي فند في كتاب له صدر في 1930 نسبة العهد إلى عمر قائلاً أن العهد يُنسب إلى عمر تارة وينسب تارة أخرى إلى قائده عبد الرحمن ابن غنم، ولم يذكر فيه اسم المدينة التي اشترط فيها النصارى على أنفسهم هذه الشروط الظالمة، ويستغرب أن يشترط المغلوبون على الغالبين كما أن العهد لا يشبه سائر العهود التي أمضاها المسلمون في بلاد الشام ويلاحظ أنه لا وجود لتطبيق هذا العهد في حياة عمر، ويستنتج أخيراً أن هذا العهد تم انتحاله في المدارس الفقهية بعد سنوات طويلة من موت عمر.

هذا الرأي يتبناه د. كحيله الذي يري أن عهد عمر لم يصدر عن عمر ولا في عهد عمر، مبرهناً على ذلك بنقد الأسانيد الأربعة لهذا العهد قائلاً: "إذا نحن راجعنا أسماء رجال السند نجد أن بعضهم لا يعد من الثقات أو أنهم من المجاهيل"، يقول د. كحيله : "يتضح لدينا أن المسانيد الأربعة تشوبها شوائب ونعلم أن الإسناد له مكانة خاصة عند الفقهاء ووثاقته من وثاقة المتن"، ثم يحلل تاريخياً سيرة عبد الرحمن ابن غنم (راوي العهد وكاتبه في معظم الروايات) ولا نعلم الكثير عن حياته، يترجح لدينا أنه لم يكتب هذا العهد ولم يروه، لسبب بسيط هو أنه استقر على نحو دائم في بلاد الشام حيث قضي معظم سنوات عمره المديد، والأكثر من ذلك أن المصادر حين تتحدث عن كُتاب عمر رضي الله عنه لا تذكر بينهم عبد الرحمن ابن غنم، وكان جديراً بها أن تذكره، إذا كان هو الذي كتب العهد، لما له من أهمية وإذا كان ابن غنم هو الذي روي هذا العهد

أو كتبه أو صاغ شروطه فلابد أن يكون من قواد المسلمين الكبار في فتوح الشام والجزيرة، ولم يكن هو أحدهم"، يواصل د. كحيلة نقده التاريخي الدقيق لنسبة العهد إلى ابن غنم فيقول : "إذا كنا قد استبعدنا علاقة ما بين عبد الرحمن ابن غنم وهذا العهد، فلماذا إذن نسب إليه ؟ نرجح أنه لربما يكون الأمر قد اختلط على أجيال من المؤرخين والفقهاء بين عبد الرحمن ابن غنم الأشعري (ت 78هـ) وبين عياض بن غنم الفهري (ت 20 هـ) وعياض بن غنم صحابي جليل شارك في فتوح الشام وولاه أبو عبيدة (ت 18 هـ) فتوح الجزيرة وأقر عمر ولايته ومات في سنة 20 هـ.

ثم ينتقل من نقد الأسانيد إلى نقد متن العهد ذاته فيلاحظ بأنه "حافل بالتناقضات أول هذه التناقضات في تحديد شخص الكاتب، فهو ابن غنم في معظم صور العهد وهو عمر أو أهل الجزيرة أو مدينة كذا وكذا في صور أخرى"، التناقض الثاني في لغة الخطاب فالعهد في معظم الروايات صادر من المغلوب وليس من الغالب والعادة، كما يقول د. كحيلة، أن الغالب هو الذي ينسب إليه الخطاب، التناقض الثالث في شخص المغلوب فهو مرة نصارى الشام أو أرض الشام أو أهل الجزيرة أو نصارى أهل الشام ومصر أو نصارى مدينة كذا أو بلد كذا.. الخ، وتناقض رابع في تحديد المخاطب فهو عمر في معظم صور العهد، وهو ابن غنم في بعضها ؛ وهناك تناقض خامس وهو أن المغلوبين شرطوا على أنفسهم شروطاً غاية في القسوة والإذلال وهو كما يقول د. كحيلة : "ما يتعارض مع منطق العهود، فالشرط يضعه في العادة الغالب ويلتزم به المغلوب"، ويوجد تناقض سادس حيث اشترط النصارى على أنفسهم عدم بيع الخمور، وهذا الشرط يتناقض مع ما ورد عن عمر نفسه، كما يقول د. كحيلة : من أنه أقر بأخذ العُشر على خمور أهل الذمة، ماداموا هم الذين يبيعونها، أي أنه أقر لهم بيعها (انظر ابن قدامة).

يقارن د. كحيلة العهد المنسوب إلى عمر بعهود النبوة والخلافة الراشدة ليوضح أن العهد العمري يختلف عنها من جوانب شتي ؛ أولها : أن هذه العهود في معظمها قصيرة فصلح الحديبية مثلاً من ستة أسطر؛ ثانياً : أن كل عهد يتضمن حقوقاً وواجبات والحال أن العهد العمري يفرض على المسيحيين واجبات ولا يعترف لهم بأية حقوق، بينما عهود عصر الفتح اعترفت للمغلوبين بحقوقهم مثلاً عهد خالد بن الوليد لأهل دمشق الذي "أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يُسكن شيء من دورهم"، وفي عهد خالد أيضاً لأهل عانات اعترف لهم بالحقوق التالية : "لا تهدم لهم بيعة ولا كنيسة وأن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلوات، وعلى أن يُخرجوا الصلبان في أيام أعيادهم"، بل إن عهد عمر لأهل القدس اعترف لهم بحقوق منها أنه "أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم ولصلبانهم وأن لا تُسكَن كنائسُهم ولا تُهدَم ولا يُنتقص منها ولا من حيزها [مساحتها] ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم..".

يلاحظ د. عبادة عبد الرحمن كحيلة أنه في جميع هذه العهود تم التنصيص للمغلوبين على "عهــد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين"، كما ترد أسماء الشهود على العقد، كما أن بعض هذه العهود مؤرخة ولا أثر لذلك في العهد المنسوب لعمر، هذا العهد الذي قام عليه فقه الذمة في الإسلام لم يذكره كبار مؤرخي الإسلام كالواقدي والأزدي والبلاذري والطبري كما لا نجده في سيرة عمر لابن الجوزي ولا في كتب الفقهاء المسلمين الأوائل، وأقدم كتابين ذكرا عهد عمر هما كتاب "المحلي" لابن حزم (ت 456 هـ)، وكتاب "السنن الكبير" للبيهقي (ت 458 هـ)، أي بعد أكثر من أربعة قرون من كتابة هذا العهد المزعوم، يؤكد د. كحيلة عدم صحة ما ذكره برنارد لويس من أن عهد عمر ورد في كتب غير المسلمين، لكن المصادر المسيحية التي عاد إليها المؤرخ المصري لا أثر فيها لهذا العهد.

يتساءل د. كحيلة عن المسئول عن انتحال عهد عمر، ويجيب عن ذلك بأن المسؤولية تعود إلى بعض الفقهاء الذين انتحلوا، في عهود التوتر والنزاع بين المسلمين وأهل الذمة، هذه القيود التي نسبت إلى عمر بن الخطاب أو ابن عبد العزيز لإسباغ الشرعية عليها، وكما تؤكد سسيولوجيا المعرفة، فالفقه، كأي نشاط معرفي، نتاج شروط عصره ؛ فإن بعض الفقهاء، في بعض العصور اقترحوا نماذج للعلاقات بين الدولة وأهل الذمة، وهكذا تحولت هذه الاقتراحات إلى قيود نسبت لأحد العُمَرين، وشيئاً فشيئاً تبلورت في ما يسمي بعهد عمر الذي يرجح مؤرخنا أن النسخة الأولي منه ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث لسبب هام هو أننا لا نجد إشارة إلى هذا العهد لا في سياسة هارون الرشيد ولا المتوكل ولا المأمون.

لم يصبح العهد متداولاً إلا في بداية القرن السادس الهجري "بعد الهجمة الصليبية ثم الهجمة التترية وتورط بعض الذميين في الهجمتين"، كما يقول كحيلة عندئذ اكتسب العهد، بفضل المناخ الذي أشاعته الحروب الصليبية، مصداقية "الخطأ الشائع" فانتقل من كتب الفقه إلى كتب التاريخ، على إن أقدم إشارة واضحة إلى العهد وقف عليها المؤلف تعود إلى سنة 700 هـ "حين وفد إلى مصر وزير ملك المغرب في طريقه إلى الحج وراعه ما شاهده من ارتفاع أحوال أهل الذمة فأنكر ما شاهده ووصل الخبر إلى السلطان الناصر بن قلاوون"، فشدد الخناق على أهل الذمة لتطبيق شروط العهد المنسوب لعمر عليهم.

وهكذا يتضح أن العهدة العمرية كذبة ضخمة وضعها مناخ الإمبراطورية للدولة وفقهاء السلطان ونسبوها إلى عمر لتبرر المخالفات الصارخة فيها، وتقبلت الأجيال التالية (حتى الآن) هذه الأكاذيب، كما تقبلت أكاذيب لا حد لها تطفح بها كتب التراث من تفسير أو حديث، بل ونجدها حتى الآن مقررة في المناهج الأزهرية لطلبة الأزهر، فالأمر هو أمر اجترار لما وضعه الأسلاف دون أي تفكير أو نقد أو إعمال للعقل.

* * *

قد يسوغ لنا أن نختم هذا الفصل الطويل بإشارة عما تعرض له المسلمون من آثار أحداث 11 سبتمبر سنة 2001م في الولايات المتحدة، أننا نجد الوجه الإمبراطوري قبيحًا دائمًا سواء كان في الماضي أو الحاضر بالنسبة للشرق أو بالنسبة للغرب، فما أن حدثت أحداث سبتمبر سنة 2001م حتى ظهرت موجة عارمة من الغضب والثورة على المسلمين ظلت قائمة حتى سنة 2006م، عندما نشرت جريدة المصري اليوم في عددها الصادر 30 نوفمبر سنة 2006م، لصفحة الأخيرة، عنواناً عريضًا "إذاعة أمريكية تطالب بوشم مسلمي الولايات المتحدة لتميزهم، وأمريكيون يطالبون بترحيلهم أو وضعهم في معسكرات"، وجاء أن برنامجًا على إحدى المحطات الإذاعية أيد معاملة المسلمين الأمريكيين بنفس الكيفية التي عومل بها اليهود في ألمانيا النازية، فيما طالب المشاركون عبر الهاتف في برنامج بثته الإذاعة بوضع وشم على جباه المسلمين أو تجميعهم وشحنهم خارج الولايات المتحدة.

وكان المذيع جيري كلاين قد أبدى في إحدى حلقات برنامجه الحواري الذي تبثه إذاعة (wmal 630)، تأييده إنشاء برنامج حكومي من شأنه إجبار جميع المسلمين على ارتداء "علامات تمييز هوية"، وقال : أفكر فيما إذا كان يجب أن تكون "علامات تمييز الهوية" شريطاً على الذراع، أي شريط عليه الهلال، أو أن تكون وشمًا على شكل الهلال"، وفي اتصالات هاتفية بالمحطة الإذاعية خلال البرنامج رفض بعض المتصلين أي معاملة تمييزية للمسلمين، لكن آخرين أيدوا كلام كلاين حتى أنهم اقترحوا إجراءات أكثر تشددًا ضد المسلمين الأمريكيين، وقال أحد المشاركين في مداخلة ويدعى ريتشارد من مدينة كيثر سبيرج بولاية ماريلاند : ليس فقط أن نضع الوشم وسط جباههم، بل نجمعهم ثم نشحنهم إلى خارج البلاد، وقال مشارك آخر يدعى هيلث من نفس الولاية : لا أعتقد أن هذا يكفي، يجب أن نبني معسكرات على غرار الحرب العالمية الثانية مثلما تم مع اليابانيين والألمان.

فلا عجب إذا حدثت من ألف عام الممارسات التي أشرنا إليها ضد المسيحيين واليهود.

نعم للولاء.. ولا للبراء

ـ 1 ـ

نعم للولاء

رأينا من الفصول السابقة وما بها من تعليقات، وقبل ذلك من المقدمة أن الولاء والبراء موقف تطلبه وضع معين وخاص هو الحرب التي تحتدم ما بين الدين السماوي أول ظهوره، وما بين قوى الأمر الواقع والمصالح المكتسبة وحكم الحاكمين واستغلال المترفين، وأن هذه الحرب بالنسبة لهم حرب حياة أو موت، كما أنها بالنسبة للمؤمنين بالدين فرصة للاستشهاد أو النصر، بمعنى أن العداوة والتوتر يصل إلى أعلا درجة، في هذه الحالة يفترض بداهة على المؤمنين أن يتماسكوا وأن يتحدوا وأن يعتصم بعضهم ببعض ليكتسبوا القوة، كما يفترض أن يستبعدوا أي مهاودة أو مهادنة أو استخذاء أو تسليم، الأمر الذي يتطلب بالتبعية البراء من كل من يدعو إلى ذلك ولو كان من عشيرتهم وقرابتهم الأدنيين.

هذا موقف طبيعي، وقد نزلت فيه الآيات التي يستشهد بها أنصار الولاء والبراء على إبراهيم، وعلى الرسول ﷺ من البراء من كل يوالي الأعداء أو يركن إليهم أو يتعاون معهم مثل :

- "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ" (الزخرف : 26ـ، 27، 28).
- "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ" (الممتحنة : 4).
- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" (الممتحنة 1).
- "لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ

بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ" (الممتحنة : 22).

- "وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" (المائدة : 51).

فصياغة هذه الآيات توضح أنها إنما نزلت بسبب ما أعلنه الكفار من حرب وحصار واضطهاد للمؤمنين، وأن هذه الحالة توجب إجراء عملية "فرز" ما بين الذين يقفون مع المؤمنين والذين يقفون مع المشركين.

ومن المهم أن نعلم أنه بالنسبة للإسلام، فإن الحرب على الإسلام لم تتوقف منذ أن صدع الرسول بدعوته، إذ بدأت مرحلة الاضطهاد المروع طوال ثلاثة عشر سنة في مكة ختمت بالمؤامرة المحكمة التي أحبكتها قريش لقتل الرسول بصورة تجعل "دمه يضيع بين القبائل"، ولما انتهت هذه الجولة، بدأت جولة الحروب من بدر حتى الخندق التي وصف الله بها حال المسلمين "إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً" (الأحزاب : 10ــ11).

ولم تنته هذه الجولة الثانية بفتح مكة حتى تبدت جولة جديدة مع الذين يعيشون على حدود الجزيرة العربية من العرب الغساسنة والمناذرة، ووراء الأولين الروم، ووراء الثانين فارس، لهذا استمر نزول الآيات التي تقرر الولاء والبراء طوال هذه المدة الطويلة، وقد كانت آخرها حروب الردة التي بدأت أولى أخبارها تصل مع مرض الرسول مرض الموت، ولولا شجاعة أبي بكر ورباطة جأشه، لكان من المحتمل أن تنتصر القبائل التي رفضت دفع الزكاة والاعتراف بالحكومة المركزية، وأرادوا العودة مرة أخرى إلى أعراف القبيلة.

نفهم من هذا سر نزول هذه الآيات وتوجيهاتها الصارمة واستمرارها فترة طويلة لاستمرار الحروب والعداوات.

مع الانتصار على الردة، انتهت فترة "الحرب على الإسلام"، وبالتالي انتهت معها العلة وانتفى وجود الولاء والبراء، وأصبح التمسك بها هو تمسك بقوانين حرب في عهد سلام.

ولكن ــ كما قلنا في المقدمة ــ لقد ظهرت "روافد" جعلت أحكام الولاء والبراء، تمتد، بل غيرت من طبيعتها، فبعد أن كانت موقفاً من وضع معين أصبحت جزءً لا يتجزأ من عقيدة الإسلام.

وقد كان السبب الذي أوجد الرافد الأول هو أن الحرب عادت مرة أخرى، ولكن بين المسلمين بعضهم بعضًا، والحرب هي الحرب، ومع ذلك فإن الحرب ضد أعداء الإسلام لابد وأن تختلف ولو هونا ما عن الحرب ما بين المسلمين بعضهم بعضًا،

إلا أن هذا لم يمنع من أن هذه الحرب أوجدت معسكرين متقاتلين، وبالتالي نشأ عمليًا وضع الولاء والبراء، ولم يبق إلا إسباغ المبرر الأصولي له.

لقد أدت الحـرب مـا بين الإمـام علي ومعاويـة بن أبي سـفيان ووقـوع معركـتي الجمل وصفين إلى ظهور مجموعـة تملكتهـا الحـيرة في تكـييف هـذه الحـرب، وانتهى فكرها إلى الخروج من الفريقين، واتهام الفريقين بالكفر، هذه المجموعة هي الخوارج التي ارتأت أن ارتكاب المسلم لمعصية تجعله كافرًا وتوجب التبرؤ منه، وهكـذا تـبرءوا من علي بن أبي طـالب وطلبـوا منـه التوبـة حـتى يمكن أن يحـاربوا معـه، وأدت بهم الحيرة الفكرية لابتداع صيغة "لا حكم إلا لله"، وهي كما قال الإمام علي بن أبي طالب "كلمة حق أريد بها باطل"، أو قل تؤدي إلى باطل.

ومع أن جـذوة الخوارج ظلت متقدة حقبة طويلة، وأنهم اتصفوا بالشجاعة، فـإن قضـيتهم كـانت خاســـرة، ولهـذا، ورغم أنهم انتصـروا في المعـارك، فـإنهم حسـروا الحرب.

ولكن من عجائب التاريخ أن هذه الصيحة بعد أن نامت ألف عام حـتى ظـُن أنهـا ماتت، فإنها عادت مرة أخرى في العصـر الحـديث على يـدي المـودودي ٍالـذي تعـرض لموقف سياسي هو انفصال الأقاليم الإسلامية في الهنـد من حكومتهـا وتكـوينهم دولـة إسلامية مستقلة في هـذه الأقـاليم حـتى لا يتعرضـوا لهيمنـة الهنـدوس الـذين يمثلـون الأكثرية ويكنون عـــداوة عميقة للإسلام والمسلمين، كان موقفـاً سياسـيًا/دينيًـا تمخض عن فكرة "الحاكمية الإلهية" والرغبة في تكوين دولة كالتي تصـورها الخـوارج لا يكـون الحكم فيها إلا لله.

ولما كانت صيحة "لا حكم إلا للـه" كمـا قلنـا كلمـة حـق تـؤدي إلى باطـل، لأنهـا شـــعار يسـتحيل تحقيقـه، فاللـه تعـالى لن يتـنزل إلى الأرض ليحكم هـــو، ولن يرسـل ملائكة معصومين ليحكموا، ولكنه أنزل القرآن كأساس للحياة سلمًا أو حربًا، وهو يمثل حكم الله، ولكن الذين سيطبقونه هم الرجال تبعًا لمفاهيمهم المتفاوتـة الـتي قـد تبعـد عما أراده الله حقاً في القرآن، ولكن هذا في حميا الحماسة الدينية لم يتضح خطؤه إلا بعد وقت طويل.

وفي الخمسينات من القرن العشرين، نشأت في مصر عـداوة محتدمـة مـا بين جمال عبد الناصر والإخـوان المسـلمين انتهت باعتقالـه عشـرات الألـوف من الإخـوان على مرتين الأولى سنة 1954 والثانيـة سـنة 1964 وتعرضـوا فيهـا لتعـذيب وحشـي، وفي سجون عبد الناصر، ونتيجة لتعذيبه انتهى بعض شباب المعتقلين إلى أن الحكومـة التي تمارس هذه الصور من التعذيب للمؤمنين هي حكومة كافرة (كما انتهى الخـوارج من قبل إلى كفر الذين تقاتلوا مع عليٍّ ومعاوية)، ومع ظهور هـذه الفكـرة عـاد الـولاء والبراء كموقـف، وتكتلت مجموعـات من الشـباب في هيئـات حملت أسـماء "جماعـة

المسـلمين" التي أطلقت عليها الصحافة جماعـة التكفـير والهجـرة، وجماعـة الجهـاد، والجماعة الإسلامية، وبالنسبة لهذه الهيئـات جميعًـا كـان مبـدأ الـولاء والـبراء، مبـدءًا مقدسًا، خاصة وأنه تدعم بأثر الروافد الثلاثة التي جاءت قبله.

في الفترة التاريخية الطويلة ما بين حرب الإسلام مع أعدائـه في الجولـة الأولى التي أوجدت الولاء والبراء، والموجة الأخيرة التي أشرنا إليها في العصر الحديث، ظهـر عامل هـام هـو أن الدولـة الإسـلامية وصـلت إلى مسـتوى الإمبراطوريـة، وتعرضـت ــ كالإمبراطورية الرومانية وربما أكثر ــ لمقتضياتها التي جعلت الدولـة الإسلامية تصـدر أحكامًا تتمشى مع هذه المقتضيات، كـان أبرزهـا العلاقـة مـا بين الفـاتحين المسـلمين ورعايا الدول المفتوحة التي أطلق عليهم أهل الذمة، ذلك لأن الإسلام لما كان يختلـف عن المسيحية، وعن الإمبراطورية الرومانية، في أنه ترك الحرية الدينية لأهالي الـدول المفتوحة وتقاضى جزية مقابل الدفاع عنهم وحمـايتهم وكفالـة حريـاتهم الدينيـة بحيث يصبحوا في "ذمة" الدولة الإسلامية، وبدت بوادر ذلك من عهد عمر، وقد أوردنا عهوده إلى بعض أهالي هذه البلاد، وعهود قواده، وكلها لا تمسهم، ولا تمس حريـاتهم الدينيـة، ولا تقربهم بأذى أو تسئ إليهم، ولكن لما تطاول الزمن وتحولت الخلافة الراشـدة إلى ملك عضوض يستعبد الناس مسلمين ــ وغير مسلمين ــ ظهرت في الفقـه الإسـلامي ما يسمونه "أحكام الديار" وانتحلت ما سمي عهدة عمر لإضفاء نوع من الشرعية على ما تضمنته تلك الأحكام من تفرقة ما بين المسلمين" الفاتحين الأعزاء الأقوياء وما بين الأهالي المنهزمين الأذلاء، وتضمنت صـورًا عديـدة من التحكم في حمـايتهم وإجبـارهم على زي معين وسلوك معين يشعرهم الذلة والضعة، وهذه كلها صفات مناقضة تمامًـا للإسلام، ولما جاء به ولما أنزل له، وقد أفسدت فريقاً من الفقهاء، فسخروا معـارفهم الإسـلامية لخدمـة المقتضـيات السـلطوية للدولـة الإمبراطوريـة بمـا في ذلـك افتعـال "العهـدة العمريـة"، ووضـعهم فكـرة دار الحـرب ودار السـلام وإيجـابهم على الحـاكم المسلم الغزو مرة في العـام على الأقـل.. الخ هـذه الأحكـام السـلطانية (وهـو اسـم لأشهر الكتب التي صدرت عن هذا الموضوع لمؤلفها الماوردي).

وكانت إضافة هذا الرافد غرس فكرة دار الحرب ودار الإسـلام، وفكـرة الجزيـة، وأنهـا ليسـت قطعـة من الممارسـات السياسـية الـتي مـاتت "وشـبعت مـوت" ولكن باعتبارها جزءًا من النظام الإسلامي يطبق على أهل الكتاب في الدول الإسلامية، ممـا عُد نسفاً لفكرة المواطنة التي يقوم عليها المجتمع في العصر الحديث، وكـذلك فكـرة الجهـاد وأنه وسيلة لنشر الدعوة وإعلاء كلمة الله.

وظهر الرافد الثالث ــ والأخير ــ مع ظهور الوهابية في الحجاز في القرن الثاني عشر، وكانت الحجاز تحت الحكم التركي الذي عرف بفساده وسـمح بظهـور كثـير من البدع، كما أفسح المجال لخرافات الصوفية ولأفكار الشفاعة والتمسح بقبـور الأوليـاء، وكان هذا بالنسبة للوهابية "تابو" أو هو هدم لأصول التوحيد الإسـلامي يسـتحق أقصـى

الشدة في المعالجة، وكان محمد بن عبد الوهاب مصلحًا ولكنـه أصـيب بـداء كثـير من المصلحين، ألا وهو الغلو فلم يرى في هذه "البدع" مخالفات، أو ذنوبًا، ولكن نوعًــا من الشرك، وأن الذين يمارسوها وهم وقتئذ ــ أغلبيـة المسـلمين ــ قـد كفـروا، وأن من الضروري التـبرؤ منهم، واهتمـوا أعظم اهتمـام بتصـنيف النـاس مـا بين مؤمـنين حقـاً وآخرين يظنون أنفسهم مؤمنين، وإن كانوا ــ من وجهة نظـرهم ــ أشـركوا، وانتهكـوا أعظم صفة للعقيدة.

وخصص الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته للقضاء على هذه البدع بما في ذلك تسوية المدافن بالأرض وهدم القباب واعتبار الشـفاعة شـركاً وتحـالف مـع ابن سـعود ملك نجد، وبهذا وجدت قوة عسـكرية تدعـم الفكرة الإيمانية بالسيف، واسـتطاعت أن تمد نفوذها على الحجاز بأسره، بل وبعض مشارفها.

وقام حلف ما بين أبناء ابن سـعود وأبنـاء الشـيخ محمـد بن عبـد الوهـاب الـذين أطلق عليهم "آل الشيخ" تمكن من حكم الحجاز بعد أن أطلقوا عليه "السعودية".

وأعمل الوهابيون معاولهم هدمًا فيما خلفه الرسول ﷺ والصحابة فطمسوا معـالم البقيع وما فيه من قبور الصحابة، وجرفوا خمسـة من المسـاجد السـبعة الـتي أنشـئت بالقرب من معركة الخندق وسيهدم المسجدان الآخران، ودمـروا بيت السـيدة خديجـة الذي عاشت فيه مـع الرسـول ﷺ في مكة، وقـد اكتشـف في عـام ١٩٨٩، ووجـدت فيه الغرفـة الـتي كـان الرسـول ﷺ يصـلّي فيها، كمـا أنـه الـبيت الـذي ولـد فيـه خمسة من أطفاله، وبعد أن تم تصوير المكان، طمر بالتراب، وتم بناء مراحيض عامـة في البقعـة التي كان ينام فيها الرسول ﷺ، وكان الهدف مرة أخرى هو ردع النـاس عن الصـلاة في ذلك الموقع، نظراً لأن المسلمين شأنهم في ذلك، شـأن اليهـود، لا يصـلّون في مكـان غير طاهر.

أما مكان ولادة النبي ﷺ فقد حوله الوهابيــون منذ عقـود إلى سوق للماشــية، ثم بنيت مكتبة في المكان، والآن توجد خطة لبناء مجمع سكني يطل على الحرم.

لقــد كـانت آفـة الأديـان الغلـو، وفي نظرنـا أن الفكـرة الوهابيـة عن العقيـدة الإسلامية هي مثال لهذا الغلو، وقد عنينا بشرحه في الفصل الأول.

وانتقلت عدوى الوهابية إلى مصر، وكثير من دول العالم الإسلامي نتيجة لهجــرة عدد كبـير من العمـال والمهنـيين إليهـا للعمـل ولقضـائهم سـنوات طويلـة أثـرت على أفكارهم، فعادوا وهم يحملونها، كما أن ارتفاع أثمان البترول من 4 دولار للبرميــل إلى 40 دولار عقب حرب سنة 1973، واستخدام البـترول كسـلاح، زود السـعودية بـأموال جمة مكنت رابطة العالم الإسلامي من إقامة المسـاجد، وإرسـال الأئمـة إلى الأقليـات في الدول الأوروبية وأصبحت هذه المساجد وكتبها وأئمتها دعاة للفكر الوهابي، وهيمن

الفكر الوهابي على فكر الجماعات الإسلامية، وأخذ ذلك شكل ظهور فكرة الولاء والبراء.

* * *

ـ 2 ـ

إن هذه الروافد التي تدين بوجودها على ما رأينا لعوامل تاريخية أو لفهم متعسف في العقيدة قد فقدت كل مبررات وجودها سواء كانت ظرفاً تاريخيًا، أو تعسفاً عقيديًا، وانتهت وتبين فسادها ومن ثم فيجب أن لا يوجد مكان للولاء والبراء، وتعود الأمور إلى الوضع الطبيعي.

لقد رفضنا من أول وهلة عند معالجتنا للموضوع فكرة "الحكم على الناس" التي يرى المؤمنون ـ بالولاء والبراء ـ كما عبر عن ذلك مؤلف كتاب "نظرات في واقع محمد قطب المعاصر" التي استشهدنا به، وجاء فيه :

[إن قضية الحكم على الناس بالإسلام أو الكفر لهي من القضايا الهامة والأساسية بالنسبة لأمر عقيدة المسلم للارتباط الوثيق بما يترتب عليها من آثار متمثلة في حقوق وواجبات في مواجهة الآخرين والتي عبر عنها الشرع بالولاء والبراء، وهو الركن الركين لعقيدة التوحيد].

إن موقف الحكم على الناس يخالف مخالفة صريحة الموقف الذي وضعه القرآن الكريم للدعاة، بدءًا من الرسول الكرام الذي حملهم الله أمانة التبليغ إلى أصغر عضو في أصغر جمعية إسلامية، إنهم جميعًا "دعاة لا قضاة" دورهم الوحيد هو التبليغ دون أن يكون لهم أي سلطة على الناس، بل ولا أن يكون الهدف الذي يعملون لتحقيقه هو حدوث الهداية بالفعل نتيجة للتبليغ ؛ لأن هذا يعود إلى عوامل عديدة لا تدخل تحت قدرة الدعاة، لذلك قال القرآن الكريم للرسول " إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (القصص : 56)، وقال له : "وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى" (عبس : 7)، فأنت لست مكلفاً بهداية الناس، أنت مكلف بتبليغ الناس، وبمجرد أن تتم هذه المهمة ينتهي دورك، ولا يعنيك موقفهم، فإذا صدوك، وإذا رفضوا ما جئت به فأنت "لست حفيظاً عليهم ولا وكيلاً لهم" :

- "وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنذِرِينَ" (النمل : 92).
- "وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" (يونس : 41).
- "فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" (هود : 12).

- "وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ" (الرعد : 40).
- "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ" (الحجر : 94).
- "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ" (النحل : 82).
- "نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ" (ق : 45).
- " كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ" (الذاريات : 52 ــ 55).

إذا كان هذا هو دور الرسول الأعظم، الذي اصطفاه الله ليحمل الرسالة وليبلغها للناس، فكيف يمكن لأحد أن يحكم على الناس ؟

الحقيقة أن القرآن لم يتركهم أحرارًا ليقفوا هذا الموقف ؛ لأنه نص في آيات عديدة أن الحكم على الناس هو لله "إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ"، وأنه هو الذي يفصل فيما كانوا فيه يختلفون من عقائد، سواء كان ذلك ما بين أديان وأديان أو ما بين مذاهب داخل كل دين، أما ما يختلفون فيه فيما هو دون ذلك فيدخل في "الحكم بين الناس"، "وليس الحكم على الناس"، وهناك فرق كبير لأن الحكم بين الناس يكون على أساس قانون موضوعي، وهو ينصب على الفعل وليس على الفاعل، ولهذا فإن هذه الفصيلة من الحكم تأتي بعد حرف "بين" وتنص على الحكم بما أنزل الله أو بالقسط أو بالعدل.

هناك إذن نوعان من الحكم في القرآن، النوع الأول : ما يشتجر في حياة الناس من مشاكل اقتصادية أو اجتماعية تؤدي للتنازع فالتقاضي، ويتميز هذا الحكم بأنه بين الناس، وهناك الحكم على الناس أنفسهم، أو على ما يختلفون فيه من عقائد، وهذا الحكم هو لله يوم القيامة، والآيات الدالة على ذلك عديدة.

فمن النمط الأول :

- "وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (المائدة : 42)
- "ِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً" (النساء : 58).
- "فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (المائدة : 42).

- "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" (المائدة : 48).

ومن النمط الثاني :

- ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ **تَخْتَلِفُونَ**" (آل عمران : 55).
- "أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ **يَخْتَلِفُونَ**" (الزمر : 46).
- "فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ **يَخْتَلِفُونَ**" (البقرة : 113).
- "فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً" (النساء : 141).
- " وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ **يَخْتَلِفُونَ**" (النحل : 124).
- "اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ **تَخْتَلِفُونَ**" (الحج : 69).
- "أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ" (الأنعام : 62).
- "ـِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ" (يوسف : 67)
- "وَمَا **اخْتَلَفْتُمْ** فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" (الشورى : 10).

إن كلمة "اختلفوا" التي ترددت في الآيات السابقة تنبئ عن حقيقة ذات صلة وثيقة بقضية الولاء والبراء هي "الاختلاف"، وقد أقر القرآن الاختلاف كأمر واقع تمليه الطبيعة البشرية والصفة الاجتماعية، وأن فكرة مجتمع لا اختلاف فيه أمر يكاد يكون ممتنعًا، وقد حسم القرآن الموقف فيه، فإذا كان اختلافاً دنيويًا ما بين أفراد وأفراد أو مجموعات ومجموعات، فإن الفصل فيه يكون بالقضاء الذي يقوم على العدل ويفسح المجال لكل من الطرفين للدفاع وليدلي بحجته ويوجد من الضمانات ما يستبعد ما يحدث عادة من تحايل أو إساءة وإذا كان عقيديًا فحكمه إلى الله يوم القيامة سواء كان هذا الخلاف ما بين مجموعات من المؤمنين بدين واحد أو من أرباب دين وأرباب دين آخر، فإن حكمه إلى الله يوم القيامة.

وداخل الإطار الواسع لتقبل الاختلاف تعددت الآراء وترادفت الاجتهادات، ووصل الفكر بالكثير إلى حدود المجاوزة، وظهرت فئات عديدة من المبتدعة، ومع هذا فلم يكفرهم أحد.

وجاء في رسالة من السلفية المعاصرة إلى التي كتبتها الشيخ محمد زكي إبراهيم رائد العشيرة المحمدية وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : "لم يكفر الصحابة "القدرية" الذين قالوا إن الله لم يقدر ـــ ولا يقدر ـــ على تقدير الهدى أو

الضلال على أحد، بل قالوا إن الإنسان يخلق عمل نفسه لنفسه بنفسه.. هداية أو ضلالاً.

ولم يكفر الصحابة الفرق التي زعمت منهم أن الله أجبر الخلق وأكرههم على ما هم عليه، وأن الكفر والإيمان والطاعة والمعصية في الناس كالبياض والسواد، والطول والقصر، في خلقة الآدمي، ما للمخلوق في ذلك صنع ولا يد.

بل إنه لما قتل أمامهم وغسل وكفن وصلي عليه ودفن في مقابر المسلمين.

ولم يكفر التابعون أحدًا من المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، وأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين فلا هو مسلم ولا هو كافر، بل هو خالد في النار، وأن الله لا يخلق ولا يقدِّر على العباد الذنب أو المعصية، بل العبد يخلقها ويقترفها، وأن الله لم يتكلم، وأن القرآن ليس بكلام الله، بل هو خلق مما خلق الله، فليس لله كلام عندهم.

ولم يكفروا المرجئة الذين قالوا : إن الإيمان قول بلا عمل، فمن أقر بالشهادتين فهو كامل الإيمان وإن لم يصل طول عمره ركعة واحدة، أو لم يقم بطاعة واحدة، بل هو عندهم في مقام جبريل وفي منزلة الأنبياء والمرسلين سواء بسواء.

ولم يكفروا الجهمية الذين يقولون : ليس على العرش إله يعبد، وليس لله في الأرض كتب لله ولا ألواح ولا كلام، وينكرون المعراج نهائيًا، كما ينكرون صفات الله التي جاءت في القرآن، حتى قال فيهم ابن المبارك إنا لنحكي قول اليهود ولا نحكي قول الجهمية، ومع هذا عندما قتل زعيمهم (الجهم ان صفوان) ووزيره (الجعد بن درهم) غسلوهم وكفنوهم وصلوا عليهم ودفنوهم في مقابر المسلمين، ولم يجروا عليهم حكم الردة ولا الزندقة ولا الكفر أو الإشراك أو الوثنية.

وقد نقل ابن تيمية أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكفر أهل هذه الفرق، بل صلى ﷺ خلف بعض الجهمية وبعض القدرية، وأن أكبر ما توصف به كل تلك الفرق عند ابن تيمية هو الفسق" انتهى الاقتباس.

وقال مالك "من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل أمره على الإيمان".

لهذا لم يعهد في عهد الرسول ﷺ والصحابة من يكفر، كان الكفر "تابو" لا يجوز أن يلفظ به أحد وحذر الرسول ﷺ أصحابه تحذيرًا شديدًا، ولم يكفر الرسول ﷺ تلك المجموعة التي قال عنها القرآن "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً" (النساء : 137)، وإنما أطلقوا عليهم "المنافقين"، ولم يكفروا زعيمهم، بل قال الرسول ﷺ : "بل نحسن صحبته"، واستجاب لما طلب منه ابنه رداءه ليكفنه فيه وصلى عليه، ولم يكفر الذي ارتكب خيانة كبرى، بل ذكر له سابق لقائه في بدر كلمته المأثورة "إنه شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع عليهم فقال افعلوا ما شئتم".

من نافلة القول أن تقرر أن هذا يتناقض مع ما ذهب إليه أنصار الولاء والبراء الذين يرمون من يمس ــ في زعمهم ــ العقيدة بالكفر، وأن من لم يكفره فهو كافر أيضًا، فما أجرأهم على النار.

* * *

إن كل ما أوردناه سابقاً من قصر سلطة الرسول على التبليغ دون الحكم على الناس، دع عنك تكفيرهم، وأن الخلاف إذا كان دنيويًا فإنه يحسم أمام قضاء يقوم على العدل أو إذا كان عقيديًا فإن الله تعالى هو الذي يفصل فيه يوم القيامة إنما يعود إلى أصل أعظم من قبول الإسلام للاختلاف الذي أشرنا إليه آنفاً، أنه يعود إلى أن الإسلام يؤمن بالتعددية في المجتمع الإنساني، لأن توحيد الله يستتبع التعددية فيما عداه، بما تعنيه هذه التعددية من حرية في الإيمان، وفي فهم الإيمان طبقاً لما يمليه العقل والضمير، وفي ما توجده من فسحة وسعة، وتنوع، وتفاوت بحيث لا يسير الناس على مثل حد السيف الواحد، أو الصراط المستقيم وإنما تتوزعهم المسالك والطرق فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات، كلهم يعيشون، لا أحد يحرمهم هذا الحق، وهو الحرية لأن الأصل في المجتمع هو التعددية، وإلا ما سمي مجتمعًا، ولكان فردًا :

- "وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً" (الإسراء : 19-20).
- "مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ" (الشورى : 20).
- "لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" (المائدة : 48).

* * *

وتضم هذه التعددية، فيما تضمه تعددية الأديان، وهنا نصل إلى صلب الموضوع، إن من الصعب عادة على دين ما أن يعترف بتعددية الأديان، ويندر أن يأتي دين فيمتدح رسل أديان أخرى، ولكن الحقيقة أن هذا هو ما يصدع به القرآن فهو يفترض في المسلمين الإيمان بما "أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (آل عمران : 48) .

بل إن الإسلام يكاد يجعل الأديان الإبراهيمية الثلاث أسرة واحدة، أبوها إبراهيم، وأمهاتها مختلفات، فهم في التعبير العربي "أبناء علات" أي أبناء أب واحد وأمهات مختلفات.

وهذه الوشائج الأسرية ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وموسى وعيسى تمتد لتشمل رسول الإسلام، الذي هو ابن إسماعيل، الابن الأول والأكبر لإبـراهيم من هـاجر المصرية.

وعالج الإسلام قضية تعددية الأديان الحساسة هـذه بصـورة تنـاقض صـورة الـولاء والـبراء "المسـلمون في الجنـة.. الكفـار في النـار"، أو "المسـلمون يوالـون والكفـار يُعادون"، فهو يتحدث عن الديانات والرسل بنـوع من الاحـترام والتقـدير والموضـوعية والمساواة، وكما قلنا يلزم المسلمين الإيمان بها.

والقـرآن يسـجل أن روح هـذه الـديانات واحـدة هي "إسـلام القلب للـه"، فهـذا الإسلام لله هو العنصر المشترك الأعظم والمميز لها جميعًا، ومن هنا جاز أن يعـد كـل أنبياء اليهود والمسيحية "مسلمين".

القرآن بجانب هذا يعترف بأن الأديان وإن كانت واحدة في روحها، إلا أن كلاً منهـا له "شرعة ومنهاجًا" يختلف عن الأخرى، ويمثل فيهـا هـذا الاختلاف عنصـر الخصوصـية الذي يعود إلى التاريخ والجغرافيا والملابسات الاجتماعية التي أحاطت بكل دين.

وهذه وإن كانت مختلفة، إلا أن الإسلام يقر بها.

والقرآن يتحـدث بنـبرة حـادة ضـد فئـتين ينسـب إليهمـا الشـقاق والخلاف، الفئـة الأولى الحكـام والقـادة السياسـيين، والفئـة الثانيـة رجـال الـدين، في هـذين يتمحـور الخلاف والشقاق والعداوة والبغضاء.

ولسنا في حاجة لأن ندافع عن مـا ذهب إليـه القـرآن، فهـو موقـف التـاريخ، وهـو موقـف الاجتمـاع، إن الملـوك بمـا فرضـوه من ظلم واسـتبداد، وأن رجـال الـدين بمـا تصرفوا في الدين بما يتفق مع مصالحهم أو ضالتهم هو سبب الأزمة الدينية.

وهذا الحكم عام ينطبق على حكام المسلمين وعلمـاء الإسـلام كمـا ينطبـق على حكام وعلماء الملل الأخرى.

الحكام عمقوا الخصائص الفئوية والقوميـة حـتى وصـلوا بهـا إلى العنصـرية الـتي تفضل جنسًا على جنس، ورجال الأديان عمقوا الفـروق مـا بين الأديـان وحرمـوا، ليس فحسب الأديان الأخرى، بل أيضًا المذاهب التي تخالف الكنيسـة أو الكنيسـة المقـررة، وآخرهـا مـا جـاء بـه بابـا الفاتيكـان من أن كنيسـة رومـا وحـدها الكنيسـة الحقـة، وأن الكنائس الأخرى ملحقـة بهـا، ولكن الخلاص المسـيحي الحـق هـو مـا تقدمـه الكنيسـة الرومانية.

وما موقف القرآن من عامة الناس من اليهود والنصارى ؟

إن القرآن يحكم عليهم بحسب أعمالهم لا بحسب دياناتهم.

- "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَـارٍ يُـؤَدِّهِ إِلَيْـكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْـهُ بِـدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُوا لَيْسَ عَلَيْنَـا فِي الأُمِّيِّينَ سَـبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (آل عمران : 75).
- "لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْـجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَنْ الْمُنْكَـرِ وَيُسَـارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْـرٍ فَلَنْ يُكْفَـرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَورأى أن الجميع كانوا ضحايا للقادة والكبراء الذين أضـلوهم السـبيل" (آل عمران : 113ــ115).
- "وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْـتَرُونَ بِآيَـاتِ اللَّهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْـرُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَـرِيعُ الْحِسَابِ" (آل عمران 199).
- "لَتَجِدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَـدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُوا وَلَتَجِـدَنَّ أَقْـرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِـينَ وَرُهْبَانـاً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ" (المائدة : 82).

ورأى أنهم جميعًا كانوا ضحايا القادة والكبراء.

- "رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ" (الأحزاب : 67).

هل معنى هذا أن الإسلام ينظر إلى الأديـان جميعًـا نظـرة سـواء، فلا يفضـل دينـاً على ديناً، بما في ذلك الإسلام نفسه ؟

لإيضاح هذه القضية الهامة نقول أن القرآن قد أوضح بصـراحة أن اللـه تعـالى لم يشأ أن يكون الناس أمة واحدة، وأنهم لن يكونوا أمة واحدة، وإنما سـيظلون يختلفـون إلى يوم القيامة "فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْـرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَـرْجِعُكُمْ جَمِيعـاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَـا كُنتُمْ فِيـهِ تَخْتَلِفُونَ" (المائـدة : 48)، لأن هـذا الاختلاف هـو أحـد الأصـول الـتي أقـام اللـه عليهـا المجتمـع البشـري، وأنشـأ عليهـا الطبيعـة الإنسـانية، وأن الاختلافـات الـتي تصـل إلى التناقض في الأديان هي مما لا يكون موضوعًا للدراسة أو المناقشــة أو الفصـل فيهـا، لأننا لا ننصب أنفسنا قضاة فيها، وإنما نكل أمرها لله تعـالى يـوم القيامـة، فهـو وحـده الذي أراد المجتمع بهذه الصورة لحكمة يعملها ولا نصل إليها.

كما أن القرآن رفض صراحة التفاضل بين الأديان فقال :

- "وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَـارَى عَلَى شَـيْءٍ وَقَـالَتْ النَّصَـارَى لَيْسَـتْ الْيَهُـودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" (البقرة : 113).

وقال للمسلمين :

- يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَـكُمْ لا يَضُـرُّكُمْ مَنْ ضَـلَّ إِذَا اهْتَـدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" (المائدة : 105).

بـل إنـه قـد قنن وأبـد تمسـك كـل ذي دين بدينـه، عنـدما أمـر رسـوله أن يقـول للكافرين :

- "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ" (الكافرون :1-6).

وأوضح القرآن أن الأمم التي قد خلت :

- " لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (البقرة : 134).
- "قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ" (سبأ : 25).
- "ذَلِـكَ مَبْلَغُهُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَـلَّ عَنْ سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى" (النجم : 30).
- "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (القلم : 7).

ومن الطبيعي أن الله أقر تقبل الخلاف وافترض التعددية فإنـه لا يجعـل من هـذه كلها داعيًا للنزاع والخصام والعداوة.

وفي هـذه السـورة ملمح لم يلحظـه معظم المفسـرين، أن القـرآن اعـترف بـأن الشرك دين، ليس هذا فحسب بل وأقر أهله عليه (في حين أن الدستور المصري فيما يقال لا يعترف إلا بثلاثة أديان الإسلام والمسيحية واليهودية).

وهكذا نرى أن الإسلام قد سد منافذ التفاضـل و"الـولاء والـبراء"، وأقـر أهـل كـل دين على دينهم، وتقبل هذا كله كأمر واقع قضت به طبـائع الأشـياء والسـنن الـتي أدار الله عليها شئون الكون، وترك الفصل فيها لله تعالى وحده "يوم القيامة ".

وبهذا نفهم كيف أن القرآن تحدث عن اليهوديـة والمسـيحية كـديانات أنزلهـا اللـه تعالى، وكيف يكـون على المسـلم أن يـؤمن بهـا وبأنبيائهـا، وأن نقـده لم ينصـب على الديانات منها، ولكن على ما فعل بها الذين احتكروها وخضعوا لمـا تعرضـه الضـرورات من تطور المجتمعات في ظل عهد لم يعرف المطبعة، وأن هذه النصوص وضعت بعـد نزول الديانات وموت أنبيائها وتعرضت للترجمـة أكـثر من مـرة وهـذه كلهـا ملاحظـات علمية وواقعية في كل الظروف التي أشرنا إليها ويعترف بها كل دارسي الأديان.

وقد حدثت في الإسلام بالنسبة للسُـنة التي تأخر تدوينها فزحف الوضع عليها.

* * *

يمكن أن يسـتدرك علينـا البعض بآيـات تشـن هجومًـا على اليهوديـة والمسـيحية، وأخرى تقرر أن "إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ" و "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْـلامِ دِينـاً فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْهُ".

نقول إن هجوم القرآن على اليهودية والمسيحية لم يكن موجهًا في الحقيقة لهما، ولكن لأن الذين يدينون بهما شنوا الحرب على الإسـلام، وخاصـة اليهـود الـذين حظـوا بالقسط الأوفر من التنديد بالإسلام، فلم يكن الهجوم على الأديان التي أمرنـا بالإيمـان

بها وتوقير أنبيائها، ولكن على الذين يمثلون هذه الأديان ويتحـدثون باسـمها، ويـدخلون في حرب مع الإسلام.

أما تعبير "إِنَّ الدِّينَ عِنْـدَ اللَّهِ الإِسْـلامُ" فقـد أوضـحنا أن القـرآن يقصـد بـذلك أن إبراهيم وإسماعيل وإسحق والأسـباط وموسـى وعيسـى مسـلمون ؛ لأن الإسـلام هـو إسلام "القلب لله"، وهذا ما توفر في المسيحية واليهودية فهمـا يـدخلان في الإسـلام، وليس من الطبيعي أن يهاجم القرآن أديانـاً اعـترف بهـا وفـرض الإيمـان بأنبيائهـا على المسلمين، ومن ناحية أخرى فكما ذكر القرآن "مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيـلَ لِلرُّسُـلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ" (فصلت : 43).

أما آية "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ"، فعلينـا أن نعـود إلى السـياق الذي جاءت به هذه الآية.

إن سياق الآيات السابقة عليها هو عن عدم استجابة النـاس للميثـاق الإلهي الـذي أخذه الله على الأنبياء بتبليغ رسالة الله، وأن هذا يُعد تنكرًا لـدين اللـه الـذي أسـلم لـه "مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ"(آل عمران : 83).

ثم تأتي الآية 84 ونصها : "قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْـزِلَ عَلَيْنَـا وَمَـا أُنْـزِلَ عَلَى إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَـى وَعِيسَـى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"، وبعدها مباشرة "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْـرَ الإِسْـلامِ دِينـاً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ" (آل عمـران : 85)، وليس من الطـبيعي بعد إيمان المسلمين بما أنزل على كل هؤلاء الأنبياء أن يقال "وَمَنْ يَبْتَـغِ غَيْـرَ الإِسْـلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ"، وما يوضح مقصد الآية هو ما جاء بعدها مباشرة "كَيْـفَ يَهْـدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَـإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَـلَ تَـوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الضَّالُّونَ" (آل عمران :86).

إن الآيات العشر من سورة آل عمـران من الآيـة 80 إلى الآيـة 90 هي عن ردة بعض الذين آمنوا وشهدوا أن الرسول حق، ثم كفروا وازدادوا كفـرًا ومـع أنـه توعـدهم العذاب الأليم فقد فتح الباب لمن تاب منهم، فلا يمكن أن تؤخذ الآية بمعنى رفض كـل دين غير دين الإسلام ؛ لأن من المبادئ الإسلامية المقررة أن الإسلام يقر كـل ذي دين على دينه، وقد قنن ذلك وأبده الله في سورة الكافرون، كمـا قننـه الرسـول عنـد أول لقاء ما بين الإسلام والمسيحية عندما كتب لأهل نجران عهدًا بـأن لا يغـير مسـيحي ولا يهودي عن مسيحيته ولا يهوديته، وجاء ذكر ذلك في الفصل السابق.

الحقيقة أن تكييف الإسلام للتعددية الدينيـة بحكم اختلافاتهـا وحساسـيتها هـو من العمق، ومن ملاحظة أبعاد لا يلحظها الفرد العادي، وما يصل إلى "قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * قُلْ لا تُسْـأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَـا وَلا نُسْـأَلُ عَمَّا تَعْمَلُـونَ" (سـبأ : 24-25)، "وَقُولُـوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْنَـا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْـلِمُونَ" (العنكبـوت : 46)، نقـول إن هـذا موقف يصعب على المسلمين أنفسهم، ومن باب أولى غير المسلمين استيعابها.

إن عامة المسلمين تعتقد أن الإسلام هو ختام الأديان بمعنى أنه ناسخ لها جميعًـا، وأن المسلمين وحدهم هم الذين سيدخلون الجنـة، أمـا الكفـار فسـيدخلون النـار، لأن العقل الإنساني حتى لو جردناه من آثار الذاتية عليه، فإنه يتصور دائمًـا أن اختلاف دين عن آخر يعني ضلال أحدهما، ويعسر عليه أن يتقبلهما معًا.

وقـد خصصـت إحـدى الصـحف البحثيـة الإسـلامية وهي (مجلـة التوحيـد، السـنة التاسعة عشر، خريف 1421ـ2000، طهران، قم) أحد أعدادها للتعددية وكان العـدد كله يدور حول سؤالين :

الأول : هـل يمكن قبـول تعـدد الأديـان ؟ وهـل يعـني هـذا خطـأ البعض وصـواب الآخر ؟

الثـاني : مـا هـو مصـير الـذين لا يؤمنـون بالإسـلام يـوم القيامـة ؟ وهـل سـيكون مصيرهم النار ؟

وماذا يقول المسيحيون ؟

إن المونسنيور باسيليوس موسي وكيل الأقباط الكاثوليك في مصر عرض لها في رسالة موجزة أصدرها سـنة 1920م حملت اسـم "الـدين والوطنيـة"، وقـد عالجـه من زاوية "التساهل"، الذي يقصد به معنيين أحدهما حسن والآخر فاسد، المعنى الأول هــو أن نعامل بالحسنى كل النـاس مهمـا اختلفت أديـانهم ومـذاهبهم وهـذا التسـاهل ليس جائزًا فحسب، بل هو واجب والمعنى الثـاني هـو استحسـان كـل الأديـان على السـواء وهذا التساهل غير جائز قطعا ولا يبرره الدين فضلاً عن العقـل السـليم، وهـو يـرى أن هذا التساهل هو : "نكران وجحد للدين كيف لا وأنه يضع كل الأديان في مستوى واحــد من الصحة مع أن هذه المساواة هي كفر وضلال مبين وتجديف على الله وعلى العقل البشري وسبب ذلك أن الأديان تتناقض تناقضًا واضحًا ولا تتفق مع العقائد التي تعلمهــا لا بل كل واحد منها يعلم عكس ما يعلم الآخر.

فبينما الإسـلام يعلم أن المسـيح ليس إلهًـا وأنـه لم يصـلب ولم يمت يعلم الـدين المسيحي أن عقيدته الأساسـية هي لاهـوت المسـيح وصـلبه وموتـه (بصـفته إنسـاناً)، وبينما الواحد من المذاهب المسيحية يدعى بأن مصدر الوحي هو الكتـاب يشـرحه كـل

فرد من الأفراد إذا بالفروع المسيحية[1] الأخرى تقول غير ذلك أي أن مصدر الوحي هو الكتاب وتعليم الرسل وأن الشرح الصحيح لكتاب الله هو أمانة أودعت للكنيسة لا للأفراد وبينما البعض من هذه المذاهب تقول أن الكنائس هي جنسية وطنية مستقلة عن بعضها لا تربطها إلا رابطة المحبة نسمع البعض الآخر يقول أن للكنيسة رئيسًا واحدًا أعلى له حق التعليم والسيطرة الروحية على كل الكنائس هذا عدا الاختلافات الأخرى التي قال عنها بعضهم أنها غير جوهرية وهي ربما كانت كذلك في حد ذاتها إلا أنها أصبحت جوهرية لكون كل دين من الأديان يعزوها إلى الوحي الإلهي ويستحيل على الله أن يناقض نفسه حتى في المسائل الغير أساسية فلا يمكن أن تكون هذه المتناقضات حقيقية كما أنه لا يمكن أن يكون النعم واللا واحدًا، ولا أن يتساوى الليل والنهار وعلى كل حال فإن من يساوي بين جميع الأديان يجحد تعاليم المسيح الذي قال : "إني لهذا ولدت ولهذا أتيت إلى العالم لأشهد بالحق".

وجاء في جريدة الدستور في (14/8/2007 ص 1) أن نادر فوزي رئيس منظمة مسيحي الشرق الأوسط قال "أنه لن يتوقف عن توجيه انتقادات للدين الإسلامي ومحاولة إثبات أنه دين غير سماوي مبررًا ذلك بأنه واجب عليه كمسيحي أن يقوم به لأن المسيحية لا تعترف بالإسلام كدين سماوي"، ويستطرد السيد نادر "ويكفي أننا لم نقم في يوم من الأيام بتفجير مسجد ولا ذبح مسلم".

وأقول إن هذا للأسف الشديد هو رأي رجال الكنيسة المسيحية، كما أن التبشير بالمسيحية (الذي يستتبع الارتداد عن الإسلام) هو جزء لا يتجزأ من تعاليم المسيح الذي دعا "الرسل" ليتلمذوا الأمم، وقال بترز "الويل لي إن لم أكن مبشرًا".

ومما يجعل هذا الموقف من رجال الكنيسة غير مفهوم أنهم في الوقت الذي يدعون أن الإسلام ليس ديناً سماويًا، مع أنه يشيد بالمسيح.. الخ، فإنهم يعترفون باليهودية رغم أنهم يؤكدون أن اليهود هم الذين صلبوا المسيح، وأن أحبارهم رفضوا أن يعفو الوالي الروماني عنه وآثروا أن يعفوا عن اللص "بارباس"، واليهودية عنصرية بغيضة منغلقة، في حين أن المسيحية محبة ومنفتحة، والأعجب أنهم يضمون العهد القديم مع الأناجيل، ويصل العجب إلى غايته أنهم يعنون بالعهد القديم ويستشهدون به، أكثر مما يعنون بالأناجيل.

وما جاء في آخر تعليق السيد نادر فوزي من أنهم لم يقوموا بتفجير مسجد أو قتل مسلم فيبدو أنه فقد الذاكرة تمامًا فنسي الحروب الصليبية، ونسي محاكم التفتيش، ونسي حرب المائة عام التي خربت أوروبا.

---

[1] **الرجل كاثوليكي، وهو يؤمن أن الكاثوليكية هي الكنيسة الأم وأن غيرها "فروع"، وهو ما صرح به بعد أكثر من ثمانين عامًا البابا بنديكت السادس عشر في محاضرته وفي تصريحاته، ويلحظ أيضًا أنه لم يقنع بالاختلافات ما بين المسيحية والإسلام، ولكنه مدها إلى ما بين المذاهب المسيحية المختلفة.**

من هذا نرى أن موقف المسيحيين لا يفضل موقف المسلمين، بل هو أسوأ، ومـا ظل الحكم على الدين يتوقف على آراء أصحاب كل دين فسنظل في حلقة مغلقة، ولا يمكن الخلاص منها إلا بأن نعترف بعجزنـا عن الوصـول إلى الحـق الموضـوعي لأننـا لا نملك التجرد الكامل.

وعلى كل منا أن يؤمن بدينه ويعمـل لـه لا باعتبـاره الأفضـل ولا باعتبـاره الناسـخ للأديان الأخرى، ولكن باعتباره هو قدره، وينتظر من الآخرين الموقـف نفسـه، وهـذا لا يمنع من التلاقي، كما يتلاقى أهل الجنوب وأهل الشمال، فضلاً عن حقيقـة أشـار إليهـا الإسلام وطمسها أو ضاءل منها السدنة، تلك هي أنه وإن وجد اختلاف في تكييف الإله، فإن هذا لا يمنع من أن هذا الإلـه هو الخالق وهو نبع القيم، وأن هناك موضوعات وقيم محل اتفـاق جميـع الأديـان مثـل السـلام والمحبـة والمعرفـة والمسـاواة والخـير، وأن المجتمع الحديث يفرض قضايا على أعظم درجـة من الأهميـة والخطـورة تتفـق عليهـا الأديـان مثـل مقاومـة الحـروب والقضـاء على التعـذيب والعمـل على تعميـق كرامـة الإنسان ومقاومة كـل صـور السـرف والشـطط.. الخ، فلمـاذا نتجاهـل هـذه المنـاطق المشـتركة، ولا نـذكر إلا قضـايا الاختلاف، فحـول هـذه القضـايا يمكن أن يتلاقى كـل المؤمنين ويعملون بوازع إيماني واحد لخير البشرية، أما العقـــائد فالحل الوحيد هو ما اقترحه القـــرآن أن نعتبر هذا الموضوع خارج إطـار النظـر، وأن اللـه تعـالى الـذي هـو فوق الجميع هو الذي سيفصل فيه يوم القيـامة، وهذا التكـييف القـرآني للقضـية على تعقـده هو أفضل التكييفات، لأن التكييفات الأخرى يشوبها الغرض وتغلب عليها النزعة الذاتيـة بحيث تـرى أن مـا تـؤمن بـه هـو الصـواب وأن الآخـر هـو الخطـأ، وقـد تجـاوز الإســلام بنا هـذه النقطـة، ولم يجعلهـا موضــع للحكم، وتـرك الحكم للـه تعـالى يـوم القيـامة، ورأى أنه ــ بالنسبة للمجتمع الإنساني ــ فإن التعددية الدينية ليست فحسـب سليمة بل ضرورة، وأن مـا تتضـمنه من اختلافـات إنمـا هي "أبعــــاد" أخـرى لحقيقـة متعـددة الأبعاد، وضرورة للتكيف مع المبادئ والسنن التي تقوم عليها ويتطور بها فهم الأديان والتعامل معهـا، وأن من الضـروري أن نتعـالى على الـدوافع النفسـية والذاتيـة الـتي تحملنـا على تـرجيح ديانتنـا على الآخـرين، وعلينـا أن نسـلم أن للأديـان مـوازين وتقديرات ليست من موازيننا وتقديراتنا، ولكنها تعـود إلى اللـه تعـالى، وبهـذا نسـتريح ونريح.

* * *

لما كان الحديث قد استفاض شيئاً ما فمن الخير أن نلم بأطرافه :

فأولاً : أن الله تعالى لم يشأ أن يكون الناس أمة واحـدة، ولـو شـاء لفعـل، ولكنـه آثـر التعددية "لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَـاكُمْ"، فضـلاً عن أن توحيـد اللـه، وهـو أصـل الإسـلام، يستتبع التعددية فيما عداه.

ثانيًا : لما كان معنى هذه التعددية أن توجد أديان عديدة فقد أقر، واعترف بـأن الكفـار لن يؤمنـوا، وأن المســـلمين لن يكفـروا، وأن لكـل واحـد منهم دينـه، كمـا أن

للمسلمين دينهم، وأكدت عهود الرسول والخلفاء الراشدين بإبقاء كلٍ على دينه، وكان من وصايا الرسول وأبي بكر وعمر للجيوش الإسلامية أن لا يمسوا كنيسة أو ديرًا وأن لا يقتلوا كاهناً أو راهبًا، بل لقد أعفي هؤلاء من أداء الجزية.

وثالثاً : أمر الله تعالى المسلمين أن يؤمنوا بكل الرسل ويوقرونهم ولا يفرقوا بين أحد منهم، واستبعد أي شائبة تعلق بهم، ولم يتعرض للمسيحية أو اليهودية كدين بشيء، وإنما تعرض للأحبار والرهبان الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وتلك هي سوءة رجال الدين في كل الأديان، وكان تنديده الأعظم باليهودية، لأن الله اصطفى بني إسرائيل وفضلهم على العالمين وجعل منهم الأنبياء والملوك، ولكنهم لم يحفظوا هذه النعمة وثاروا على أنبيائهم، وعادوا لعبادة العجل وحاربوا الإسلام، وقد تضمنت التوراة نفسها تفصيلاً لذلك يفوق كل ما جاء به القرآن، وبالنسبة لعامة المسيحيين واليهود فقد حكم عليهم بأعمالهم وليس بدياناتهم.

رابعًا : نهى القرآن عن التفاضل بين الأديان فلا يجوز لليهودي أن يقول أن اليهودية أفضل من المسيحية، ولا للمسيحي أن يقول أن المسيحية أفضل من اليهودية، كما لا يجوز ذلك للمسلمين أيضًا "عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ".

خامسًا : لم يحرم الإسلام من رحمة الله وإحسانه "الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ" (البقرة : 62)، وجعل الفصل في الخلاف بين الأديان لله وحده يوم القيامة "الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (الحج : 17).

سادسًا : إن الإسلام يرفض مناقشة نقاط الاختلاف في الأديان مما يجعل هذه القضية غير واردة أصلاً، وأننا بإقحام أنفسنا فيها نتألى على الله، ونرفض طبائع الأشياء، ونقنن مبدأ الأسود والأبيض، والخطأ والصواب، ونعجز عن استيعاب أن العقائد لها شأن آخر، ولذلك استأثر الله تعالى بالفصل فيها فحكمته تفوق حكمتنا أضعاف المرات، وتصل إلى أبعاد وآفاق لا يمكن أن نصل إليها، وأنها قضية معقدة مركبة يؤدي التعقيد والتركيب فيها إلى قبول الاختلافات، ولا يجري عليها ما يجري على المواد أو العلوم الرياضية التي لابد أن يكون فيها (1 + 1 = 2)، وأمرنا بأن نقول "آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (العنكبوت : 46).

سابعًا : لا يرى الإسلام أن الأديان ينسخ بعضها بعضًا، وأن وجود واحد يتنافى مع وجود آخر للاختلافات بينهما التي تستتبع أن يكون أحدهما باطلاً.

إن هذه الفكرة المؤصلة في أهل الأديان جميعًا إنما تنبع عن وازع الذاتية التي تصل إلى الأثرة والأنانية ولا ترى إلا نفسها، كما يعود إلى وجود المؤسسات الدينية التي يفيد سدنتها بالطبع من أن السلامة والصحة هي شأن دينها الخاص دون الأديان.

إن الإسلام يرفض هذه الفكرة لأنه يؤمن بالتعددية، وأن الناس جميعًا لن يكونوا أمة واحدة، فهذا يخالف مشيئة الله، لأن في التعددية الحسنات التي تحول دون قيام النظام الواحد الوحيد، مما لا نرى أنفسنا في حاجة لإيضاحه، واختلاف الأديان لا يخلو من حكمة، لأنه يصور الأبعاد المتعددة للحقيقة المطلقة الواحدة (الله) تعالى، فالمسيحية تعرض المحبة، واليهودية تعرض التوحيد، والإسلام يعرض العدل، وقد تعرض أديان أخرى خصائص أخرى لا نلم بها، وليس معنى الصفة الخاصة لكل قيمة من هذه القيم تعارضها، ولكن تكاملها لأن المجتمع يحتاج إليها جميعًا.

ومعروف بالطبع أن الأديان نزلت في أماكن مختلفة وفي تواريخ متفاوتة، وأنها كانت لابد وأن تتأثر بهذا، لأن الدين وإن كان رسالة من الله وواحد في جوهره، فإنه فيما عدا ذلك لابد وأن يتعامل مع الأماكن المختلفة والأزمنة المختلفة، ولا يُعد هذا تناقضًا، ولكنه إثراء وتعريف بطريقة تعامل الأديان مع ظروفها المختلفة، وهناك فرق بين الدين باعتباره عقيدة تؤمن بالله وكونه واضعًا لخطوط عريضة لضمان رشاد وسلامة المجتمع، كما أن هناك فرق بين الدين ككلمة الله التي لا خلاف فيها، وبين فهم الناس للدين وتطبيقهم له، وكذلك انعكاسات الظروف الاجتماعية والزمنية، وهذه تدخل في باب الظواهر الاجتماعية، وتوجد التنوع، والتعددية، ولكنها لا تتدخل في باب التناقض، وهي عادة في الشريعة (الدنيويات)، وليست في العقيدة.

ولما كان الله تعالى يعلم أن الإنسان ــ رغم كل مزاياه ــ ظلوم جهول، وأن الناس لن تسلم بذلك، فإنه ــ كما أوضحنا ــ استبعد كل العوامل التي تؤدي إلى "الواحدية" وإلى تعصب كل ذي دين لدينه، بأن أمر المسلمين بالإيمان بكل الأنبياء، وبكل الأديان بعد استبعاد التحريف، ولم يحرم أصحاب الأديان الأخرى من رحمة الله وعدله، ورفض التفاضل بين الأديان، وأوكل إلى نفسه تعالى الحكم فيما يختلفون فيه، كل هذا للتوصل إلى سلام بين الأديان.

* * *

وأخيرًا فإننا عندما نقول "نعم للولاء" فكأننا نعانق العالم كله، حتى وإن لم نصل إلى ما وصل إليه ابن عربي :

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان وبيت لأوثان
ودير لرهبان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحبّ أنىّ توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

إننا نقول "نعم للولاء" لأننا نؤمن بالمخالقـة الحسـنة الـتي أعلنهـا الأنبيـاء جميعًـا، صـل من قطعـك، وأحسـن إلى من أسـاء إليـك، وعامـل النـاس بخلـق حسـن.. أحبـوا مبغضيكم.. ونؤمن بالمحبة.. افش السلام على من تعرف.. ومن لا تعرف.

أننا نؤمن بالولاء لأن الله تعالى يقول "إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا" (الحجـرات : 13)، فلم يقـل "ليتحـاربوا "، ولا "ليتشاكسـوا"، ولا "ليتحاسبوا"، ولا "ليحكم بعضكم على بعض"، ولكن لتعارفوا.

أننا نؤمن بالولاء لأنه يمثل القاعدة الإسلامية، قاعدة البراءة الأصلية، فكل الأشياء حلال مـا لم يحرمـه القـرآن بنص صـريح لا يقبـل تـأويلاً، وأنـه في الأشـخاص يفـترض العدالة ما لم يظهر تجريح.

نؤمن بالولاء لأنه يمثل السعة لا الضيق، السهولة لا الصعوبة، حسن الظن لا سوء الظن، ولأنه ينفي الحرج، ولأنه يقبل النفس الإنسانية كما سواها الله "فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" (الشمس : 8).

نؤمن بالولاء لأننا نرفض أن نشـق عن القلـوب ونتغلغـل في النوايـا، ولأننـا نـؤمن بمبدأ "خذ أمر أخيك على أحسنه".

* * *

ــ 2 ــ

لا للبراء

لماذا نقول لا للبراء ؟

نقول لا، لأن البراء جعل من الإسلام محكمة ومعتقل في حين أنه رسالة هداية.

ذلك أن فكرة الولاء والبراء تتمحور حول الحكم على الناس ما بين مؤمن صـحيح الإيمان، وما بين منافق، أو مبتدع، أو كافر، وطبقاً لصفته يتحدد الولاء والبراء.

وكان المسلمون على عهد الرسول الله يرون أن كل من قـال "لا إلـه إلا اللـه" فهو مسلم يدخل حظيرة الإسلام ويصبح في عصـمة الإسـلام فلا يهـدر دمـه، ولا تمس كرامته، ولا يتعرض ماله لمصادرة.

ولم يهتموا أبدًا بدراسـة تفاصيل وأعماق فكرتـه عن "لا إلـه إلا اللـه"، فهـذا ليس من شأنهم، وإنما هو شـأن الله تعالى العالم بما تكنه الجوانح وما تنم عنه القرائح، كما لم يزعجهم أن يرتكب مثل هـذا المـؤمن ذنوبًـا مثـل السـرقة والزنـا، لأن الرسـول صـرح في حديثـه مـع أبي ذر أنـه سـيدخل الجنـة رغم أنـف أبي ذر ! ولأن اللـه تعـالى خاطب بلقب "المؤمنين" أفرادًا ارتكبوا ما يمكن أن يُعد من كبـائر الإثم، فلم يحـرمهم نعمة الإيمان.

كانت الطوية السليمة للصحابة تتفق مع ما أراده الله للإسلام وما بينه القرآن وما صرح به الرسول ، ولكن عندما تطاول الأمد وفسد المجتمع الإسلامي فسادًا شديدًا لعدد كبير من العوامل لا يتسع الشياق لتفصيلها، وقد يكفي ذكر سوء نظم الحكم منذ أن حول معاوية بن أبي سفيان الخلافة إلى ملك عضوض وجاء بزياد، ثم ظهر عبد الملك وجاء بالحجاج، ثم تولى السفاح وجاء بأبي مسلم وهؤلاء جميعًا طغاة كأسوأ ما يكون الطغاة الذين استعاذ القرآن منهم ثم شيوع الفاقة نتيجة لإهمال الزكاة وإثقال الشعب بالضرائب وانتشار الجهالة لأن هذه النظم لم ترى من واجبها أن تعلم الناس، ثم زحف الخرافات على الدين بعد أن أغلق باب الاجتهاد فصدأ العقل المسلم وانفسح المجال لخزعبلات الصوفية وأدعياء الولاية، ولما سبق هذا كله من ابتلاء السُنة بوباء الوضع الذي سمح بوجود آلاف من الأحاديث الموضوعة التي وضعت في ظل الطبيعة الإمبراطورية للدولة الإسلامية، ولهذا جاءت مطابقة لهذه الطبيعة بقدر ما كانت مجافية للقرآن والرسول وسمحت بإقامة أسس الفقه وإصدار الأحكام ووضع التفاسير وتصنيف الأحاديث على الصورة التي تقبلها المسلمون ولم تكن هي المثلى.

في هذا الوقت ــ القرن السابع والثامن الهجري ــ ظهر البطل الذي تصدى لأسوأ ما حفل به العهد، وفي الوقت نفسه أكثرها انتشارًا وتأثيرًا وبوجه خاص سيطرة الصوفية ودعاويها وأوليائها ومزاعمها وهيمنتها على المجتمع وعلى عامة الناس، وكان الحكام يدارونهم ويتجاوبون معهم لمعرفتهم بسيطرتهم على العامة، وكانت حاشية السلطان تقف بالطبع مع السلطان، ظهر ابن تيمية وأراد أن يقضي على دولة الصوفية، وأن يعيد العقيدة إلى نقائها الأول، وكان ابن تيمية رجلاً نابغاً، موهوبًا توافر فيه العديد من صفات الداعية، وكان يحكم منظومة العلوم الإسلامية من فقه أو حديث أو تفسير إحكامًا يقحم الخصوم، وكان مما يتفق مع طبيعته أن يكون جهاديًا يشترك في مقاومة الصليبيين.

ولكن الأمر كان أعظم من ابن تيمية، ولم يكن مقصورًا على الصوفية وخرافاتها، ولكن على ما وقع فيه الأئمة الأعلام الذين وضعوا منظومة المعرفة الإسلامية في القرن الثالث الهجري من تفسير أو حديث أو فقه، وتقبلته الأجيال بتسليم كامل، وقد كان منهم ابن تيمية نفسه ولهذا لم تكن نتيجة معركة ابن تيمية رشيدة تمامًا لسببين :

الأول : أن ابن تيمية مع أنه رزق آلة الاجتهاد، إلا أنه تقبل منظومة المعرفة الإسلامية في الحديث والتفسير والفقه من الأسلاف الأولين، أي الصحابة والتابعين في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، ولما كان أصوليًا أميناً ومقاتلاً، فإنه ذهب إلى أقصى درجة من التشدد في التطبيق، ولم يتردد في تكفير كل من يخالفه وما أكثر ما يقول "حلال الدم" أو "يستتاب وإلا فيقتل" وكان هو الذي وضع أساس فقه الولاء والبراء ثم تابعه، وفصله الشيخ محمد ابن عبد الوهاب.

والثاني : أن أصول الاجتهاد كانت قد وضعت بالفعل، ولم يكن منها العقل، أو الحكمة، وأصبح ما وضعه المفسرون من "علوم القرآن" من ناسخ أو منسوخ، أو أسباب النزول، وما صنفه المحدثون لفرز الحديث والتوصل إلى الحديث.. الخ، محل التسليم من الجميع، كان ابن تيمية نفسه مؤمناً بهذا كله، فضلاً عن أنه دخل مع التصوف في معركة حقيقية أدت به إلى الصدام معهم، ومع السلاطين، وسجن مرارًا حتى مات وهو في السجن، كانت معركة حامية يوحي مناخها بمضامين "الولاء والبراء"، وتدفع المتورطين فيها إلى ما يدفعه مناخ المعركة من تطرف، ووجد ابن تيمية وهو يهاجم أعداءه، ويريد الانتصار إليهم وهو يستخدم كل ما تبرره ضرورات الانتصار فجاءت مواقفه في كثير من الحالات من النقيض إلى النقيض، وانتفت منها صفة العدالة أو المنطق أو القصد بحيث لم يتردد في تكفير كل من يخالفه أو الحكم عليه بالموت، وقد نفهم هذا إذا كيفنا عمله بأنه رد فعل، لا فعل أصيل، ورد الفعل يتصل بالفعل ويأخذ بعضًا من خصائصه لهذا لم تبرأ النتائج التي توصل إليها من التشدد، والغلو، والتصلب، والبعد عن المنطق التي كانت في أصل الفعل وبفرضها مناخ المعركة.

وقد قلنا إن مناخ المعركة هو الذي يوجد "الولاء والبراء"، وهذا ما نجده عند ابن تيمية، فمعركته الحامية مع أعدائه جعلته يقدم لنا أوجز تعريف عن "الولاء والبراء" : "أن توالي المؤمن وإن أساء إليك، وأن تبرأ من الكافر وإن أحسن إليك".

زلزل ابن تيمية بنيان التصوف، وحال دون أن يسيطر على المجتمع الإسلامي، ولكنه عندما كان بصدد تنقية العقيدة أوجد مفاهيم لم تكن بارزة، وأعطاها الأهمية الأولى، ولم تكن لهذه العناصر أهمية في عهد الرسول ﷺ والصحابة، ولكن تردي المجتمع الإسلامي، ومناخ المعركة الذي يفرض الصلابة والشدة، وفضلاً عما اتصف به ابن تيمية من شدة المراس، والثقة في النفس واستصغار الآخرين (وكانوا بحق صغارًا) جعل لهذه العناصر أهمية مضافة، كادت أن تكون أعظم من الأهمية الأصلية للعقيدة نفسها.

وبعد أربعة قرون تكررت القصة، عادت مرة أخرى دعاوى الصوفية، والابتهالات إلى الأولياء، وإقامة القبور والتمسح بها والاعتقاد بأن للأولياء قوة قاهرة منها حق الشفاعة عند الله.. الخ، ما كان يؤدي إليه مناخ الجهالة والتردي الذي كان قد بلغ أسوأ درجاته، قبل أن يبدأ أول خيوط فجر اليقظة.

وفي هذه الجولة أيضًا ظهر بطل جعل التصدي لهذه الخرافات همه وقصده، وكان أسعد حظاً من ابن تيمية الذي مات في سجنه، لأنه تحالف مع أمير نجد ـــ ابن سعود ــ واستطاع الشيخ بفكره والحاكم بسيفه أن يسيطرا على نجد، ثم الحجاز، وأن يصلا إلى مشارف الجزيرة العربية شمالاً، ذلكم هو محمد بن عبد الوهاب، ولم يمت

إلا بعد أن غرس دعوته في أرض الحجاز، وواصل أبناء الأمير سعود تحـالفهم مـع أبنـاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين أصبح يطلق عليهم آل الشيخ حتى الآن.

ولأن حـظ محمـد بن عبـد الوهـاب كـان أفضـل، ولأن السـعودية نفسـها كـانت محظوظة عندما اكتشف فيها البترول بكثرة جعلها الأولى في العالم، وما أدى هذا إلى بروز السعودية وامتداد نفوذها خاصة بعد تأسيس رابطة العالم الإسـلامي الـتي أخـذت على عاتقها بنـاء المسـاجد وتزويـدها بـالكتب والمراجـع وإرسـال الأئمـة إلى الأقليـات الإسلامية في الخارج، بينما تأثر بفكرها الألوف المؤلفة من المهاجرين إليها من عمـال ومهنيين، فعادوا إلى أوطانهم بعد أن قضـوا في السـعودية سـنوات، وحملـوا إلى هـذه البلاد عادات وتقاليد السعودية، وعادت مع من عاد منهم الصـورة الدقيقـة عن تشـريح العقيدة بالطريقة الوهابية، وفكرة الولاء والبراء التي تأثر بها عدد من جماعات الدعوة الإسلامية عندما احتدمت العــداوة بينهم وبين طغاة حكـام مصـر، بمـا أشـرنا إليـه في مقدمة الكتاب، وبعض فصوله.

وهكذا وجدنا أمامنـا تحليلاً للعقيـدة عكفت عليـه أجيـال بـدءًا من ابن تيميـة حـتى محمد بن عبد الوهاب وعلماء آل الشيخ، وهو تحليل يجعل العقيدة معتقلاً لا يمكن لمن دخله أن يخرج منه، أو يشذ عنه قيد أنملة عليه لأن هذا معناه "القتل".

وتبدأ الكتابات الوهابيـة الـتي تعـالج العقيـدة ببيـان التوحيد[1]، الـذي هـو خصيصـة الإسلام، وهي تقسمه إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيـد الربوبيـة يسـتلزم توحيـد الألوهيـة لأن المشـركين كـانوا يؤمنـون بتوحيـد الربوبية ولكنهم لا يؤمنون بتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهيـة هـو إفـــراد اللـه بالعبـادة، وبهـذا ينقلوننـا إلى العبـادة، وهي عبـادة قوليـة مثـل النطـق بكلمـة التوحيـد، وقـراءة القرآن.. الخ، وعبادة بدينـة ومنهـا الصـلاة والصـوم والحج.. الخ، وعبـادات ماليـة مثـل الزكاة والصدقة والذبح، ويدخل في العبـادة تـرك المحرمـات، ومن ذلـك الربـا، وتـرك السرقة وترك الغش.

ويشترطون في أداء العبادات، وترك المحرمات ابتغاء وجـه اللـه، فهـذا الفعـل أو الترك إنما يؤدي ابتغاء وجه الله لا لشيء آخر، ومن أدى العبادة ونوى بها غير وجه الله لمصلحة دنيوية أو كسب مدح الناس أو تقليدًا لغيره أو التقرب إلى أحد من الخلق، فلا يقبل منه، ولا يثاب عليها.

---

[1] **اعتمدنا في الفقرات فيما جاء في كتابنا من ص 127 حتى ص 147 على كتاب "تهذيب تسهيل العقيدة الإسلامية" تأليف أ.د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، الرياض، وقد لفت نظرنا وضع المؤلف لدرجته العلمية أ.د. (أي أستاذ دكتور) مع أن السلفيين يرفضون ما لم يحدث وقت رسول الله في العادات، فلماذا يتمسكون بهذا اللقب وهو يعود إلى أصل كنسي ومستورد، وقد أمرنا بمخالفة الكفار في الزي والهيئة، والكتاب طبع في الرياض وقد عدنا إليه من ص 21 حتى ص 220.**

وهذه ــ بصفة عامة ــ أمور مقبولة، ولكنهم عندما يتطرقـون إلى توحيـد الأسـماء والصفات فهم يثبتون ما أثبته الله لنفسه في كتابه، أو على لسان نبيه دون تحريـف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل، ويرون أن "أهل السُنة والجماعـة من أصـحاب النـبي ومن بعدهم يؤمنون بأن صفات الله جل وعلا الثابتة في الكتـاب والسُـنة صـفات حقيقيـة لا مجازية، ولذلك يقولون عن صفة اليدين "مذهب أهل السُنة والجماعة" أن للـه تعـالى يدين اثنتين ويعتقدون أنهما يدان حقيقيتان تليقـان بجلال اللـه تعـالى ولا تمـاثلان يـدي المخلوقين، وهي من صفات اللـه تعـالى الذاتيـة الثابتـة لـه بالكتـاب والسُـنة وإجمـاع السلف له[2].

نقول إنهم وهم الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها لبناء قبـة على مسـجد أو للوقـوف أمام قبر أو لاستشفاع الأولياء، كادوا أن يقعوا في التجسيم، وإلا فما معنى كلامهم بعد أن حددوا أن لله يدين اثنتين حقيقيتين، ولا ينفي هذا أن لا تكونا مثل يدي البشر.. الخ.

هذا الخطأ الجسيم الذي أوقف دعاة التوحيد على شفا الوثنية المجسـمة ـــ يعـود إلى أنهم ــ يعبدون الحروف ولا ينظرون للمعـاني، وأنهم لا يسـتخدمون عقـولهم لفهم معاني الكلمات وليس حروفها، بل أنهم لا يعودون إلى القرآن نفسـه الـذي فصـل في المسألة عندما استخدم كلمة "يدي" في مجالات لا تستخدم ولا نتصـور أيـدي حقيقيـة، فضـحوا بعلم القـرآن التزامًـا بمـا وضـعوه من قواعـد أو اعتمـادًا على حـديث جعلـوه صحيحًا، وهل يكون هناك تصرف بعد أن تصرف القرآن ؟ لقد ذكـر القـرآن الأيـدي في آيات عديدة كلها بمعنى مجازي خالص، لا يمكن أن يكون ماديًا أو حقيقيًا، فقال :

- "وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ **<u>يَدَيْ</u>** رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُــقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَــوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (الأعراف : 57).
- "وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ **<u>يَدَيْ</u>** رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَـا مِنْ السَّـمَاءِ مَـاءً طَهُـوراً" (الفرقان : 48).
- "أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَـاحَ بُشْــراً بَيْنَ **<u>يَدَيْ</u>** رَحْمَتِـهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (النمل : 63).
- "إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ **<u>يَدَيْ</u>** عَذَابٍ شَدِيدٍ" (سبأ : 26).
- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ **<u>يَدَيْ</u>** نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِـكَ خَيْـرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (المجادلة : 12).
- "أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ **<u>يَدَيْ</u>** نَجْوَاكُمْ صَـدَقَاتٍ فَـإِذْ لَمْ تَفْعَلُـوا وَتَـابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَـأَقِيمُوا الصَّـلاةَ وَآتُـوا الزَّكَـاةَ وَأَطِيعُـوا اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَاللَّهُ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ" (المجادلة : 13).

---

(2) **مرجع سابق، ص 65.**

- "وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَـرْيَمَ مُصَـدِّقاً لِمَـا بَيْنَ **يَدَيْهِ** مِنْ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَـاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ" (المائدة : 46).
- "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ **يَدَيْهِ** مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَـاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُـوَكُمْ فِي مَـا آتَـاكُمْ فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" (المائدة : 48).
- "وَقَـالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَنْ نُـؤْمِنَ بِهَـذَا الْقُـرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ **يَدَيْـهِ** وَلَـوْ تَـرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُـونَ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يَرْجِـعُ بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَـوْلَ يَقُـولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ" (سبأ : 31).

فلا يمكن لرحمـة اللـه، ولا للعـذاب الشـديد، ولا النجـوى، ولا الكتب المنزلـة أن يكون لها يد حقيقية، فليس إلا المعنى المجازي الذي تكون مجازيته من القرآن نفسـه، لأنه بالنسـبة لصـفات اللـه أو طبيعتـه لا مفـر من المجـاز، لأن الألفـاظ ـــ وهي ثمـرة معرفتنـا ـــ لا يمكن أن تحيـط بعـالم الغيب وأوضـاعه، وفي الـوقت نفسـه فلابـد من استخدامها، ومن ثم كان المجـاز، وهو ما أخذ به القــرآن.

الغـريب في الأمـر أنهم ينكـرون التفـويض، أي الـذين يقولـون نـؤمن بالصـفات الواردة في النصوص، لكن لا نثبت المعنى الذي يدل عليـه لفـظ الصـفة وإنمـا نفـوض علم معناه إلى الله تعالى، فقد قالوا هذا مذهب حادث بعد القرون المفضـلة والسـلف بريئـون منـه، فقـد تـواترت الأقـوال عن السـلف بإثبـات معـاني الصـفات، وتفويضـهم الكيفية إلى علم الله عز وجل.

ويستدلون على ذلك بما قاله الحافظ الذهبي الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـــ في كتابه "العلوـ" ص (532) في ترجمة القاضي أبي يعلي : "المتـأخرون من أهـل النظـر، أي أهل الكلام قالوا مقالة مُوَلدة ما علمت أحدًا سبقهم، قالوا : هذه الصفات تمر كمـا جاءت ولا تؤول مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد".

وقال علامـة الهنـد محمـد صـديق خـان في "قطـف الثمـر" ص (45) بعـد ذكـره لمذهب المفوضة وذكره لظن بعضهم أن التفـويض هـو طريقـة السـلف قـال : "فهـذا الظان من أجهل الناس بعقيدة السـلف، وأضـلهم عن الهـدى، وقـد تضـمن هـذا الظن استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة وكبـار الـذين كـانوا أعلم الأمة علمًـا، وأفقههم فهمًـا، وأحسـنهم عملاً، وأتبعهم سًـنناً، ولازم هـذا الظن أن الرسول ﷺ كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، وهو خطأ عظيم وجسارة قبيحة نعوذ باللــه منها".

نقول هل يوجد مسلم يرفض في مثل هذا الأمر الحساس الخطر المتعلـق بـذات اللـه والـذي تحوطـه الشـبهات، أن يفـوض فيـه الأمـر إلى اللـه ألم يقـل أحـد الأنبيـاء

"وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" (غافر : 44)، ألم تقل الآية 7 من سورة آل عمـران "هُـوَ الَّذِي أَنْـزَلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ مِنْـهُ آيَـاتٌ مُحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِـهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ".

وهل ما قاله الراسخون في العلم"آمَنَّا بِـهِ كُـلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَا" إلا تفـويض، فكيـف تستبعدون شيئاً فيه المخلص ونص الله عليه في القرآن الكريم ؟

* * *

بعد هذا يتحدثون عن "نواقض التوحيد" وفيه فصول : الأول هو الشرك الأكبر وهو أن يتخذ العبد لله ندًا يساويه في ربوبيته وألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

ويدخل فيه شرك النصارى الذين يقولون أن الله ثالث ثلاثة وشرك القدرية الذين يزعمون أن الإنسان يخلق أفعاله، وشرك غلاة الصوفية، كما يدخل فيه اعتقاد أن غـــير اللـه يعلم الغيب والكهانـة والتنجيم، ولمـا كـان الدعـــاء من أهم أنـواع العبـادة فيجب صرفه لله تعالى وحده، فمن دعا غائبًا أو دعا ميتاً بعيـد عن قـبره، وهـو يعتقـد أن هـذا المدعو يسمع كلامه أو يعلم بحاله فقد وقع في الشرك الأكبر، سواء أكان هذا المــدعو نبيًا أو وليًا، أم عبدًا صالحًا أم غيرهم، وسواء طلب من هذا المدعو ما لا يقـدر عليـه إلا الله أم طلب منه أن يدعو الله تعالى لـه، ويشـفع لـه عنـده[1]، فهـذا كلـه شـرك باللـه تعالى مخرج من الملة.

كـذلك من يعتقـد أن اللـه تعـالى لا يجيب دعـاء من دعـاه مباشـرة، بـل لابـد من واسطة بين الخلق وبين الله في الدعاء، فهذه شفاعة شركية محرمة من الملة.

ويدخل في الشرك أيضًا أن يرجو من مخلوق ما لا يقدر عليـه إلا اللـه كمن يرجـو من مخلـوق أن يرزقـه ولـدًا، أو يرجـو أن يشـفيه بإرادتـه وقدرتـه، فهـذا من الشـرك المخرج من الملة.

ويدخل في الشرك أن يقال "ما لي إلا الله وأنت" أو يقول "أرجو اللـه وأرجـوك" ونحو ذلك، فمن تلفظ بأحد هذه الألفاظ أو ما يشبهها، فقد وقع الشرك، والدليل قولـه تعالى :"فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (البقرة : 22)، قال ابن عباس رضـي اللـه عنهما : "الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول : وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول : لولا كلبة هـذا لأتانـا اللصـوص، ولـولا البط في الدار لأتي اللصـوص، وقـول الرجـل لصـاحبه : مـا شـاء اللـه وشـئت، وقـول الرجل : لولا الله وفلان، فإن هذا كله به شرط"، وما روته قتيلة بنت صـيفي ـــ رضـي الله عنها ــ أن يهوديًا أتي النبي ، فقال : "إنكم تنددون، وإنكم تشركون، تقولون : ما

---

[1] **وقريب من هذا من جاء إلى القبر وطلب من صاحبه أن يدعو الله له، فهذا عمل محرم، وهو بدعة باتفاق السلف، وقد نص جمع من أهل العلم على أن هذا العمل شرك أكبر.**

شـاء اللـه وشـئت، وتقولـون : والكعبـة"، فـأمرهم النـبي إذا أرادوا أن يحلفـوا أن يقولوا : ورب الكعبة، ويقولوا : ما شاء الله ثم شئت، فأقر النبي هـذا اليهـودي على تسمية هذا العطف شركاً، وعليه : فإن كان هذا القائـل مـا نسـبه إلى المخلـوق الـذي عطفه على اسم الله تعالى بـ "الواو" ليس على سبيل الاستقلال، ولكن نسبه إلى هذا المخلوق لأنه هو المباشر لهذا الأمر لا غير، مع اعتقاده أن الله هو الخالق المقدر، فهو شرك أصغر، من أجل هذا اللفظ الذي فيه تشريك، وإن كـان يعتقـد أن هـذا المخلـوق مشارك لله تعالى على سبيل الاستقلال، وأن تصرفه في ذلك بدون مشيئة الله تعـالى فهو شرك أكبر.

كذلك لا يجوز أن ينذر شيء من العبادة لغير اللـه كـأن يقـول لفلان عليّ نـذر أن أصوم يومًا أو لقبر فلان أن أتصـدق بكـذا أو إن شـفي مـريض أو جـار للشـيخ فلان أن أتصدق بكذا، من فعــل هذا فقد أشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة.

بالإضافة إلى هذه الأنـواع العديـدة من الشـرك الأكـبر المخـرج من الملـة والـتي يمكن أن يقع فيها بحسن نية عشرات الألوف من الناس فهناك الكفر الأكبر، وهـو كـل اعتقاد أو قول أو فعل أو ترك يناقض الإيمان، أي أنه يكـون بالاعتقـاد والقـول والفعـل ولو لم يكن مع أي منهما اعتقاد، وحكم الكفر الأكبر هو حكم الشـرك الأكـبر : الخـروج من الملة، وإذا حدث هذا بالنسبة لمسلم فهو مرتد يقع عليـه أحكـام المرتـدين، ومنهـا أنه يجب قتله إن لم يتب ويرجـع إلى الإسـلام لقولـه "من بـدل دينـه فـاقتلوه" رواه البخاري، ولقوله "لا يحل دم امرئ مسـلم إلا بإحـدى ثلاث : الـثيب الـزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة" رواه البخاري ومسلم.

ومن أنواع الكفر أن ينكـر المكلـف شـيئاً من أصـول الـدين أو أحكامـه أو أخبـاره الثابتة ثبوتاً قطعيًا كأن :

(أ) ينكر شيئاً من أركان الإيمان أو غيرها من أصول الـدين، أو ينكـر شـيئاً ممـا أخـبر اللـه عنـه في كتابـه، أو ورد في شـأنه أحـاديث متـواترة وأجمـع أهـل العلم عليـه إجماعًا قطعيًا، كأن ينكر ربوبية الله تعالى أو ألوهيته، أو ينكر اسـمًا أو صـفة للـه تعالى مما أجمع عليه إجماعًا قطعيًا، كأن ينكر صفة العـــلم[1]، أو ينكر وجود أحـد

---

[1] **ومن الصفات التي وردت فيها أدلة كثيرة متواترة من الكتاب والسُنة صفة العلو لله تعالى، وقد ذكر ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية ص 386، 387 أن أدلة علو الله بذاته نحو ألف دليل، ثم نقل ما رواه شيخ الإسلام الهروي عن أبي حنيفة أنه قال "من أنكر أن الله في السماء فقد كفر"، ثم قال "وقصة أبي يوسف في استتابته لبشر المريسي لما أنكر أن يكون الله فوق العرش مشهورة" رواها عبد الرحمن بن أبي حاتم وغيره، ومن ذلك أيضًا أن ينفي صفة القدرة، أو ينفي صفة العدل، فيتهم الله تعالى بالظلم، ومنه أيضًا أن ينفي عن الله تعالى صفة الرحمة، ونحو ذلك.**

من الملائكة المجمع عليهم كجبريل أو ميكائيل ــ عليهما السلام ــ[2]، أو ينكر كتابًا من كتب الله المجمع عليها، كأن ينكر الزبور أو التوراة أو القرآن[3]، أو ينكر نبــوة أحد من الأنبياء المجمع عليهم، كأن يتمر رسالة نوح أو إبـراهيم أو هـود ـــ عليهم السلام[1]، أو ينكر البعث للأجساد والأرواح، أو ينكر الحساب أو الجنة أو النـار، أو يتمكر نعيم القبر أو عذابه، أو ينكر أن الله تعالى قدَّر جميع الأشياء قبل حدوثها.

ومنه أن يصحح أديان الكفـار كـاليهود أو النصـارى أو غـيرهم، أو لا يكفـرهم[2]، أو يقول : إنهم لن يخلدوا في النار، ومنه أن ينسب نفسه إلى غير دين الإسـلام، ومنه أن ينكر صحبة أبي بكر، أو يقول بـردة الصـحابة أو أكـثرهم، أو يقـول بفســـقهم كلهم، أو ينكر وجود الجن، أو ينكر إغراق قوم نوح.

(ب) أن ينكر تحريم المحرمات الظاهـرة المجمـع على تحريمهـا : كالسـرقة، وشـرب الخمر، والزنا، والتبـــرج، والاختلاط بين الرجال والنساء، ونحـو ذلـك، أو يعتقـد أن أحدًا يجوز لـه الخـــروج على شريعة النبي ، فلا يجب الالـتزام بأحكامهـا، فيجـوز له ترك الواجبات وفعل المحرمات، أو يعتقد أن أحدًا يجوز له أن يحكم أو يتحـاكم إلى غير شرع الله تعالى.

(حـ) أن ينكر حِل المباحات الظاهرة المجمع على حلهـا، كـأن يجحـد حِـل أكـل لحـوم بهيمة الأنعام، أو ينكر حل تعدد الزوجات، أو حل أكل الخبز، ونحو ذلك.

(د) أن ينكـر وجـوب واجب من الواجبـات المجمـع عليهـا إجماعًـا قطعيًـا، كـأن ينكـر وجوب ركن من أركان الإسلام، أو ينكر اصل وجوب الجهاد، أو اصل وجوب الأمـر

) **ومن ذلك أن ينكر نزول جبريل ــ عليه السلام ــ بالقرآن على نبينا محمد ، أو ينكر أن للنار خزنة، أو أن للجنة خزنة، أو ينكر الكرام الكاتبين، أو ينكر ملائكة القبر، أو ملك الموت.**

) **ومنه أن ينكر أمرًا يتعلق بالقرآن مما أجمع العلماء عليه، كأن ينكر آية أو حرفاً من القرآن، أو يقول : إن القرآن ناقص، أو زيد فيه ما ليس منه، أو يزيد فيه، أو ينقص منه حرفاً أو آية.**

) **ومن ذلك أن ينكر شيئاً مجمعًا عليه يتعلق بأحد من الأنبياء ــ عليهم السلام ــ كأن يعتقد أن جبريل ــ عليه السلام ــ غلط في الرسالة، فنزل بالوحي على محمد وكان مرسلاً به إلى علي بن أبي طالب ، كما يقول ذلك بعض غلاة الشيعة الرافضة، أو ينكر معجزة من معجزات الأنبياء المجمع عليها، أو يفضل الأولياء على أحد منهم، أو يعتقد أن أحدًا من بني آدم أفضل من النبي ، أو يعتقد أنه لا يجب العمل بالسُـنة.**

) **قال أبو محمد بن حزم في الفصل 3/198 "اليهود والنصارى كفار بلا خلاف من أحد من الأمة، ومن أنكر كفرهم فلا خلاف من أحد من الأمة في كفره وخروجه عن الإسلام"، وحكي أيضًا في المرجع نفسه 3/211 الإجماع على كفر من قال "إن إبليس وفرعون وأبا جهل مؤمنون"، وحكي الإجماع على "كفر من لم يكفر أحدًا من اليهود أو النصارى، أو شك في كفره، أو توقف في ذلك"، القاضي عياض في الشفا 2/510، وابن سحمان)، كما في الدرر 2/360، 361.**

بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ينكـر سـنية سًـنة من السُـنن الـرواتب، أو ينكـر استحباب صيام التطوع، أو حج التطوع، أو صدقة التطوع، ونحو ذلك.

النوع الثاني : كفر الشك والظن :

وهو أن يتردد المسلم في إيمانـه بشـيء من أصـول الـدين المجمـع عليهمـا أو لا يجزم في تصديقه المعلومة من الدين بالضرورة.

فمن تردد أو لم يجزم في إيمانـه وتصـديقه بأركـان الإيمـان أو غيرهـا من أصـول الـدين المعلومـة من الـدين بالضـرورة، والثابتـة بالنصـوص المتـواترة، أو تـردد في التصديق بحكم أو خبر ثابت بنصوص متواترة مما هو معلوم من الدين بالضـرورة فقـد وقع في الكفر المخرج من الملة بإجماع أهل العلم ؛ لأن الإيمان لابد فيه من التصديق القلبي الجازم، الذي لا يعتريه شك ولا تردد، فمن تردد في إيمانه فليس بمسـلم، وقـد أخبرنا الله تعالى في قصـة صـاحب الجنـة أنـه كفـر بمجـرد شـكه في أن جنتـه ــ أي بستانه ـ لن يبيد، أي لن يخرب أبدًا، وشكه في قيـام السـاعة حين قـال "مَـا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَـداً" يريـد جنتـه، وحين قـال "وَمَـا أَظُنُّ السَّـاعَةَ قَائِمَـةً"، فقـال لـه صـاحبه المؤمن "أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً" (الكهـف : 35ــ 37)

ومن أمثلة هذا النوع : أن يشك في صحة القرآن، أو يشك في ثبوت عذاب القبر، أو يتردد في أن جبريل ـ عليه السلام ــ من ملائكـة اللـه تعـالى، أو يشـك في تحـريم الخمر، أو يشك في وجوب الزكاة، أو يشـك في كفـر اليهـود والنصـارى، أو يشـك في سنية السُنن الراتبة، أو يشك في أن الله تعالى أهلك فرعون بالغرق، أو يشــك في أن قارون كان من قوم موسى، وغير ذلك من الأصول والأحكام والأخبار الثابتـة المعلومـة من الدين بالضرورة، والتي سبق ذكر أمثلة كثيرة لها في النوع الأول.

النوع الثالث : كفر الامتناع والاستكبار :

وهـو أن يصـدق بأصـول الإسـلام وأحكامـه بقلبـه ولسـانه، ولكن يـرفض الانقيـاد بجوارحه لحكم من أحكامه استكبارًا وترفعًا.

وقـد أجمـع أهـل العلم على كفـر من امتنـع من امتثـال حكم من أحكـام الشـرع استكبارًا ؛ لأنه معترض على حكمة الله تعالى، وهذا قدح في ربوبيتـه جلا وعلا، وإنكـار لصفة من صفات الله تعالى الثابتة في الكتاب والسُنة، وهي صفة "الحكمة".

وأوضح مثال على هذا النوع من أنواع الكفر رفض إبليس امتثال أمـر اللـه تعـالى بالسجود لأبينا آدم ـ عليه السلام ـ استكبارًا وترفعًـا عن هـذا الفعـل الـذي أمـره اللـه تعالى به، معترضًا على ذلك بأنه هو أفضل من آدم، فلن يسجد له حيث قـال "أَنَـا خَيْـرٌ مِنْـهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ" (الأعـراف : 12)، وقـال "أَأَسْـجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ

طِيناً" (الإسراء : 61)، فاعترض على حكمة الله تعالى في هـذا الأمـر، ورفض الانقيـاد له من أجل ذلك.

ومن أمثلة هذا الكفر أيضًا أن يرفض شخص أن يصلي صلاة الجماعة ويترفع عنها لأنها تسوي بينه وبين الآخرين.

ومن أمثلته أيضًا أن يمتنع شخص عن لبس الإحرام ؛ لأنه في زعمه لباس الفقراء ولا يليق به، ونحو ذلك.

النوع الرابع : كفر السب والاستهزاء :

وهو أن يستهزئ المسلم أو يسب شيئاً من دين اللـه تعـالى ممـا هـو معلـوم من الدين بالضرورة، أو مما يعلم هو أنه من دين الله تعالى، وذلك بأن يستهزئ بـالقول أو الفعل[1] بالله تعالى، أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته المجمع عليهـا، أو يصـف الله تعالى بصفة نقص أو يسب الله تعالى[2]، أو يسب دين اللـه تعـالى كـأن يلعن هـذا الـدين، أو يلعن دين شـخص مسـلم، أو يقـول إن هـذا الـدين متخلـف أو رجعي أو لا يناسب هذا العصر، أو يسـتهزئ بملائكـة اللـه تعـالى أو بواحـد منهم كـأن يسـب ملـك الموت أو خزنة جهنم، أو يستهزئ أو يسب شـيئاً من كتب اللـه كـأن يسـب القـرآن أو يستهزئ به أو بآية منه بالقول، أو الفعل بأن يهينه بوضعه في القاذورات ونحو ذلك، أو يسب أحدًا من أنبياء الله المجمع على نبوتهم أو يسـتهزئ بهم كـأن يسـب النـبي أو يستهزئ به، أو يستهزئ بشيء مما ثبت في القرآن أو السُـنة من الواجبـات أو السُـنن كأن يستهزئ بالصلاة أو بالسواك أو بتوفير اللحية أو بتقصير الثوب إلى نصف الساقين مع علمه بأن ذلك كله من دين الله تعالى، أو يستهزئ بشخص لتطبيقـه واجبًـا أو سًـنة ثابتة يعلم بثبوتها وأنها من دين الله، وكان استهزاؤه بكل هـذه الأمـور من أجـل مجـرد فعل هذا الحكم الشرعي لا من أجل شكل الشخص وهيئته.

وقد أجمع أهل العلم على كفر من سب أو اسـتهزأ بشـيء ممـا ثبت أنـه من دين الله تعالى سواء أكان هازلاً أو لاعبًا أم مجاملاً لكافر أو غيره، أم في حال مشـاجرة أم في حال غضب أم غير ذلك.

وذلك لأن الله تعالى قد حكم بكفر من استهزأ بالله تعالى وبآياته وبرسوله محمد ، مع أنهم كما قالوا كانوا يلعبـون ويقطعـون الطريـق بـذلك، كمـا قـال تعـالى "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُـوضُ وَنَلْعَبُ قُـلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِـهِ وَرَسُـولِهِ كُنتُمْ تَسْـتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ" (التوبة : 65 ــ66) ؛ ولأن من فعل ذلك فهـو مسـتخف

---

[1] **من الاستهزاء بالفعل الإشارة باليد أو اللسان أو الشفة أو العين أو غيرها مما يدل على الاستهزاء والاستهانة، ومنه إهانة الشيء بوضعه في القاذورات أو بوضع القدم عليه أو الجلوس عليه ونحو ذلك.**

[2] **وذلك كأن يتهم الله تعالى بالظلم، أو يلعن خالقه ورازقه سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.**

بالربوبية والرسالة ومستخف بعموم دين الله تعالى غير معظم لذلك كله، وهـذا منـاف للإيمان والإسلام.

النوع الخامس : كفر البغض :

وهو أن يكره دين الإسلام.

فقد أجمع أهل العلم على أن من أبغض دين الله تعالى كفر، لقوله سبحانه "ذَلِـكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ" (محمد : 9) ؛ ولأنه حينئذ يكـون غـير معظم لهذا الدين، بل إن في قلبه عداوة له، وهذا كله كفر.

النوع السادس : كفر الإعراض :

ورد ذكر الإعراض في كتاب اللـه تعـالى في آيـات كثـيرة، وأصـل الإعـراض هـو : التولي عن الشيء، والصدود عنه، وعدم المبالاة به.

والإعراض عن دين الله تعالى قسمان :

القسم الأول : الإعراض المكفـر، وهـو أن يـترك المـرء دين اللـه ويتـولى عنـه بقلبه ولسانه وجوارحه أو يتركه بجوارحه مع تصديقه بقلبه ونطقه بالشهادتين.

وهذا القسم له ثلاث صور، هي :

(1) الإعراض عن الاستماع لأوامر الله عز وجل، كحال الكفـار الـذين هم بـاقون على أديانهم المحرفة أو الذين لا دين لهم، ولم يبحثوا عن الدين الحق مع قيـام الحجـة عليهم، فهم أعرضوا عن تعلم ومعرفة أصل الدين الذي يكون بـه المـرء مسـلمًا، فهم يمكنهم معرفـة الـدين الحـق والسـير عليـه ولكنهم لم يلتفتـوا إلى ذلـك ولم يرفعوا به رأسًا.

(2) الإعـراض عن الانقيـاد لـدين اللـه الحـق وعن أوامـر الـه تعـالى بعـد اسـتماعها ومعرفتها، وذلك بعدم قبولها فيترك ما هو شرط في صـحة الإيمـان، وهـذا كحـال الكفار الذين دعاهم الأنبياء وغيرهم من الدعاة إلى الدين الحـق، أو عرفـوا الحـق بأنفسهم، فلم يسلموا، وبقوا على كفـرهم، قـال اللـه تعـالى "وَالَّذِينَ كَفَـرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ" (الأحقاف : 3).

(3) الإعراض عن العمل بجميـع أحكـام الإسـلام وفرائضـه بعـد إقـراره بقلبـه باركـان الإيمان ونطقه بالشهادتين.

فمن ترك جنس العمل بأحكام الإسلام، فلم يفعل شيئاً من الواجبات، لا صـلاة ولا صيامًا ولا زكاة ولا حجًا ولا غيرها، فهو كافر كفرًا أكـبر بإجمـاع السـلف، لقولـه تعـالى "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَـافِرِينَ" (آل عمـران : 32) ولقولـه تعـالى "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَـاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْـرَضَ عَنْهَـا إِنَّا مِنْ الْمُجْـرِمِينَ مُنتَقِمُـونَ" (السـجدة : 22)،

ولآيات أخرى كثيرة تدل على كفر عموم المعرضين، ولأن تركه لجميع الأعمال الظاهرة دليل على خلو باطنه من الإيمان والتصديق الجازم.

ويدخل في الكفر موالاة الكافرين وهي تنقسم إلى قسمين :

(1)ولاء كفري.

(2)ولاء غير كفري.

ومن مظاهر الموالاة الكفري :

(1) الإقامة ببلاد الكفار اختيارًا لصحبتهم مع الرضا لما هم عليه من الدين أو مع القيام بمدح دينهم، وإرضائهم بعيب المسلمين، فهذه الموالاة ردة عن دين الإسلام، قال الله تعالى "لا يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ" (آل عمران : 28)، فمن تولى الكافرين ورضي عن دينهم، وابتعد عن المسلمين وعابهم فهو كافر عدو لله ولرسله ولعباده المؤمنين.

(2) أن يتجنس المسلم بجنسية دولة كافرة تحارب المسلمين ويلتزم بجميع قوانينها بما في ذلك التجنيد الإجباري، ومحاربة المسلمين ونحو ذلك، فالتجنس على هذه الحال محرم لا شك في تحريمه، وقد ذكر بعض أهل العلم أنه كفر وردة عن دين الإسلام بإجماع المسلمين، وهذا كله فيما إذا كان ذلك عن رغبة ورضا من المسلم.

(3) التشبه المطلق بالكفار، بأن يتشبه بهم في أعمالهم، فيلبس لباسهم، ويقلدهم في هيئة الشعر وغيرها، ويسكن معهم، ويتردد معهم على كنائسهم، ويحضر أعيادهم.

(4) أن يتشبه بهم في أمر يوجب الخروج من دين الإسلام، كأن يلبس الصليب تبركاً به مع علمه بأنه شعار للنصارى وأنهم يشيرون بلبسه إلى عقيدتهم الباطلة في عيسى عليه السلام، حيث يزعمون أنه قتل وصلب، وقد نفى الله تعالى ذلك في كتابه فقال تعالى "وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ" (النساء : 157).

(5) أن يزور كنائسهم معتقدًا أن زيارتها قربة إلى الله تعالى.

(6) الدعوة إلى وحدة الأديان، أو التقريب بين الأديان، فمن قال إن ديناً غير الإسلام دين صحيح ويمكن التقريب بينه وبين الإسلام أو أنهما دين واحد صحيح فهو كافر مرتد، بل إن من شك في بطلان جميع الأديان غير دين الإسلام كفر، لرده لقوله تعالى "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ" (آل عمران : 85)، ولرده لما هو معلوم من دين الإسلام بالضرورة من أن دين الإسلام قد نسخ جميع الأديان السابقة، وأنها كلها أديان محرفة، وأن من دان بشيء منها فهو كافر مشرك.

(7) إعانة الكفار على المسلمين سـواء أكـانت بالقتـال معهم، أم بإعـانتهم بالمـال أو السلاح، أم كانت بالتجسس لهم على المسلمين، أم غير ذلك تكون على وجهين.

الوجــه الأول : أن يعينهم بــأي إعانــة محبــة لهم ورغبــةً في ظهــورهم على المسلمين، فهذه الإعانة كفر مخرج من الملة.

الوجه الثاني : أن يُعين الكفار على المسـلمين بـأي إعانـة ويكـون الحامـل لـه على ذلك مصلحة شخصية أو خوف أو عـداوة دنيويـة بينـه وبين من يقاتلـه الكفـار من المسلمين، فهذه الإعانة محرمة، وكبيرة من كبـائر الـذنوب، ولكنهـا ليسـت من الكفـر المخرج من الملة] [1] انتهى الاستشهاد.

* * *

من العجيب أن أفضل من فند مـزاعم محمـد بن عبـد الوهـاب هـو أخـوه الشـيخ سليمان بن عبد الوهاب النجدي في كتابه "الصـواعق الإلهيـة في الـرد على الوهابيـة" الذي وضعه بعد سبع سنوات من انتشار العقيدة الوهابية، وفي عهد صاحبها.

قال المؤلف عن فئة المرتدين الذين حـاربهم أبـو بكـر "وصـنف آخـر وهم الـذين فرقوا بين الصلاة والزكـاة ووجـوب أدائهـا إلى الإمـام وهـؤلاء على الحقيقـة أهـل بغي وإنما لم يدعوا بهذا الاسم في ذلك الزمان خصوصًـا لـدخولهم في غمـرة أهـل الـردة، فأضيف الاسم إلى الـردة إذ كـانت أعظم الأمـرين وأهمهـا وأرخ قتـال أهـل البغي من علي بن أبي طـالب رضـي اللـه عنـه إذ كـانوا منفـردين في زمانـه لم يختلطـوا بأهـل الشرك وفي أمر هؤلاء (أي الذين رفضوا دفع الزكاة) عرضـوا الخلاف ووقعت الشـبهة لعمر رضي الله عنه حين راجع أبا بكر وناظره واحتج بقوله ﷺ "أمرت أن أقاتل النــاس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم ماله ونفسه".

وهم أهل بغي ولم يسمون أهل شرك أو هم كفـار وإن كـانت الـردة قـد أضـيفت إليهم لمشاركتهم المرتدين في بعض مـا منعـوا من حـق الـدين وذلـك أن الـردة اسـم لغوي وكل من انصرف عن أمر كان مقبلاً عليه فقد ارتد عنه.

---

[1] **قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير قوله تعالى "وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ" (الممتحنة : 9) : "وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان توليًا تامًا، كان ذلك مخرجًا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دونه".**

نقول لقد اضطروا إلى ذلك اضطرارًا لأن الرسول ﷺ سامح حاطب بن أبي بلتعة عندما أرسل جارية له إلى مشركي مكة برسالة سرية يخبرهم بزحف الرسول ﷺ عليهم، وعلم الرسول ﷺ واستخرجت الرسالة من الجارية فاعتذر حاطب بأنه فعل ذلك حتى يكون له عند مشركي مكة يد، ولم يكن له قبيـل يحميه، وقال عمر بن الخطاب للرسول ﷺ "دعني أقتله فقد نافق"، ولكن الرسول ﷺ أجاب "إنه شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم".

وتحدث المؤلف عن الخوارج وأن الصحابة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب لم يكفروهم مع أن هناك أحاديث عنهم أنهم كلاب أهل النار وأنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية فاقتلوهم "ويقرأون القرآن يحسبونه لهم وهو عليهم".

أما القدرية فهي فرقتان (فرقة) أنكرت القدر رأسًا وقالوا إن الله لم يقدِّر المعاصي على أهلها ولا هو يقدر على ذلك ولا يهدي الضال ولا هو يقدر على ذلك والمسلم عندهم هو الذي جعل نفسه مسلمًا وهو الذي جعل نفسه مصليًا وكذلك سائر الطاعات والمعاصي، بل العبد هو الذي خلقها بنفسه وجعلوا العبد خالقاً مع الله والله سبحانه عندهم لا يقدر أن يهدي أحدًا ولا يقدر أن يضل أحدًا إلى غير ذلك من أقوالهم الكفرية تعالى الله عما يقول أشباه المجوس علوًا كبيرًا (الفرقة) الثانية من القدرية قبيل هؤلاء زعمت أن الله جبر الخلق على ما عملوا وأن الكفر والمعاصي في الخلق كالبياض والسواد في خلق الآدمي ما للمخلوق في ذلك صنع، بل جميع المعاصي عندهم تضاف لله وإمامهم في ذلك إبليس حيث قال "فبما أغويتني"، وكذلك المشركون الذين قالوا "لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا" إلى غير ذلك من قبائحهم وكفرياتهم التي ذكرها عنهم أهل العلم في كتبهم كالشيخ تقي الدين وابن القيم ومع هذا الكفر العظيم والضلالة خرج أوائل هؤلاء في زمن الصحابة رضي الله عنهم كابن عمر وابن عباس وأجلاء التابعين وقاموا في وجوه هؤلاء وبينوا لهم ضلالهم من الكتاب والسنة وتبرأ منهم من عندهم من الصحابة رضي الله عنه وكذلك التابعون وصاحوا بهم من كل فج، ومع هذا الكفر العظيم الهائل لم تكفرهم الصحابة ولا من بعدهم من أئمة أهل الإسلام ولا أوجبوا قتلهم ولا أجروا عليهم أحكام أهل الردة ولا قالوا قد كفرتم حيث خالفتمونا لا نتكلم إلا بالحق، إن كبير هؤلاء من أئمة دعاتهم قتله الأمراء وبعد قتله غسل وصلى عليه ودفن في مقابر المسلمين كما يأتي إن شاء الله ذكره في كلام الشيخ تقي الدين.

وتحدث الكتاب عن المرجئة الذين يقولون "الإيمان قول بلا عمل فمن أقر عندهم بالشهادتين فهو مؤمن كامل الإيمان وإن لم يصل لله ركعة طوال عمره ولا صام يومًا من رمضان ولا أدى زكاة ماله ولا عمل شيئاً من أعمال الخير، بل من أقر بالشهادتين فهو عندهم مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل والأنبياء إلى غير ذلك من أقوالهم القبيحة التي ابتدعوها في الإسلام ومع أنه صاح بهم أئمة أهل الإسلام وبدّعوهم وضللوهم وبينوا لهم الحق من الكتاب والسُنة وإجماع أهل العلم من أهل السُنة من الصحابة فمن بعدهم فإنهم أبوا إلا التمادي على ضلالهم ومعاندتهم لأهل السُنة متمسكين هم ومن قبلهم من أهل البدع بمتشابه من الكتاب والسُنة ومع هذا جعلوا الإخوة الإيمانية ثابتة لهم ومن قبلهم من أهل البدع ولا قالوا لهم كفرتم بالله ورسوله لأننا بينا لكم الحق فيجيب عليكم أتباعنا لأننا بمنزلة الرسول من خطأنا فهو عدو لله ورسوله كما هو قولكم ــ أي الوهابية ــ اليوم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وتحدث الكتاب عن الجهمية الذين قالوا "ليس على العرش إله يعبد، ولا لله في الأرض من كلام، ولا عرج بمحمد لربه، وينكرون صفات الله سبحانه وتعالى التي أثبتها لنفسه في كتابه وأثبتها رسول الله وأجمع على القول بها الصحابة ومن بعدهم، وينكرون رؤية الله سبحانه في الآخرة ومن وصف الله سبحانه بما وصف به نفسه ووصف به رسوله فهو عندهم كافر إلى غير ذلك من أقوالهم وأفعالهم التي هي غاية الكفر حتى أن أهل العلم سموهم الفرعونية تشبيهًا لهم بفرعون حيث أنكر الله سبحانه، ومع هذا ردت عليهم الأئمة وبينوا بدعتهم وضلالهم وبدعوهم وفسقوهم وجعلوهم أكفر الأمور الهائلة فيهم، لم تكفرهم أهل السُنة ولا سلكوا مسلكهم فيما خالفهم ولا شهدوا عليهم بالكفر ولا جعلوا ممن قبلهم من أهل البدع وأقل تشبثاً بالتشريعات وقالوا عنهم إنهم قدموا عقولهم على الشرعيات، وأمر أهل العلم بقتل بعض دعاتهم الجعد بن درهم وجهم بن صفوان وبعد أن قتلوا صلوا عليهم ودفنوهم مع المسلمين كما ذكر الشيخ تقي الدين ولم يجروا عليهم أحكام أهل الردة.

وأورد الكتاب رأي ابن القيم في أهل البدع والانحرافات فقال إنهم أقسام :

أحدهما : الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له فهذا لا يكفر ولا يفسق ولا ترد شهاداته إذا لم يكن قادرًا على تعلم الهدى وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان.

القسم الثاني : متمكن من السؤال وطلب الهداية ومعرفة الحق ولكن يترك ذلك اشتغالاً بدنياه ورياسته ولذته ومعاشه فهذا مفرط مستحق للوعيد آثم بترك ما أوجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته فهذا إن غلب ما فيه من البدعة والهوى على ما فيه من السُنة والهدى ردت شهادته، وإن غلب ما فيه من السُنة والهدى على ما فيه من البدعة والهوى قبلت شهادته.

الثالث : أن يسأل ويطلب ويتبين له الهدى ويتركه تعصبًا أو معاداة لأصحابه فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقاً وتكفيره محل اجتهاد.

* * *

ولكن الشيخ سليمان بن عبد الوهاب كان يكافح وحيدًا، كان صوتاً في البرية ضاع وسط الأصوات الزاعقة لأخيه وفقهائه المدعم بسلطة الدولة، وهكذا لم يسمع أحد دعوة الشيخ سليمان، ولكن طبقت الآفاق دعوة الشيخ محمد، وأصبحت مذهبًا مقررًا لدولة كانت من أفقر الدول، ولكن الله تعالى شاء أن تكون من أغناها وأكثرها ثروة، فلم نعد نسمع صوت الحرية والسماح وسط لعنات التكفير وصرخات التأثيم.

إن هذا التعمق والتقصي، والبحث والتنقيب، والتغلغل في كل صغيرة وكبيرة ومتابعة كل شبهة يمكن أن تتسلل إلى الفؤاد والحكم على صاحبها بالعقوبة المناسبة، جعل فقه العقيدة، فقه براء وفتح أمام المسلمين جميعًا أبواب جهنم على مصراعيها

وحجز لكل واحد منهم مكاناً فيها، فقد يكون خالدًا مخلدًا إذا وقع في الشرك الأكـبر أو الكفر الأكبر أو الموالاة والبراء، الكفريين، وقد يكون في ضحضاح من النار إذا كان قد نافق أو ابتدع، فالأعمال التي تدفع إلى النار لم تقتصر على الكفر الصـريح، ومـا يتبعـه من إعدام في الدنيا وخلود في نار الدار الآخرة، ولكنه ضم مجالات مثل تقصير الثـوب أو حلق اللحيـة أو بنـاء قبـة على مسـجد، أو استشـفع بـولي أو شـك في "العلـو"، أي استواء الله تعالى على العرش أو استهان بشيء من مقدسات الإسلام أو أنكـر عـذاب القبر وأولوية أبي بكـر ثم عمـر أو سـخر من الصـحابة أو احتفـل بمولـد الرسـول أو انضم إلى طريقة صـوفية أو أبـاح الاختلاط أو رفض الحجـاب.. الخ، وكـأنهم تـألوا على الله فنفوا رحمته، واستبعدوا حكمته وتحكموا في مشيئته، وهذا يخالف تمام المخالفــة الإسلام الذي يقدمه القرآن والذي مارسه الرسول بالفعل وحـدده بـالقول عنـدما قـال "الحلال ما أحله الله في كتابه والحرام ما حرمه الله في كتابه وبينهما عفو فاقبلوا من الله عافيته"، أين هذه العافية إذا كان الفقهاء لم يتركوا قولاً أو فعلاً صغيرًا أو كبـيرًا إلا أحصوه وحددوا له العقوبة، إن الرسول كان عندما يبايع الناس كان يختم مبايعته بأن يقول "فيما استطعتم"، فكـان أشـفق على النـاس من أنفسـهم، وأين هم من القـرآن "أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ" (الأحقاف : 16)، كذلك "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعـاً إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ" (الزمر : 53).

وأين هم من حـديث أبي حذيفـة بن اليمـان عن الرسـول أنـه قـال : "يـدرس الإسلام كما يدرس وشى الثوب حتى لا يُدري مـا صـيام ولا صـلاة ولا نسـك ولا صـدقة وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هـذه الكلمـة "لا إله إلا الله" فنحن نقولها فقال صـلة بن زفـر مـا تغـني عنهم لا إلـه إلا اللـه وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة فأعرض عنه حذيفـة ثم رددهـا عليـه ثلاثـاً كل مرة يعرض عنه ثم أقبل عليه في الثالثة فقال يا صله.. تنجيهم من النار قالها ثلاثاً، قال الحاكم سنده صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، قلت وأقـره الـذهبي ويؤيـده ما ثبت عن مسلم من حديث عثمان قال : قال رسـول اللـه : "من مـات وهـو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة" كتاب هداية المقتفي في شرح وترتيب مسـند الحصـفكي للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، مخطوط لم ينشر، ص 1، وأخرجه ابن ماجه في الفتن.

إن الإسلام جاء بالرحمة والمغفرة، وهؤلاء جاءوا بالقسوة والعقوبة، ولا يقال أنهم اعتمدوا على آيات قرآنية، لأنهم فسروها على هـواهم، ولا على أحـاديث، فمعظمهـا لا يعتد به ما بين ضعيف أو موضوع، ولا تخلو رواية من مآخذ.

هلا يعلم هـؤلاء أن الرسـول قـد تجـاوز نفـاق المنـافقين الـذين صـرح القـرآن بكفرهم، وأنه وضع مبدأ "المؤلفـة قلـوبهم"، وأقـر القـرآن ذلـك وجعلهم من مصـارف

الزكاة، وما يعنيه هذا من التعامل الخاص مع بعض الناس طبقاً لظروف وملابسات معينة.

ألم يأتهم نبأ عفوه عن أئمة الكفر عندما فتح مكة، وبهذا العفو كسبهم للإسلام وحول سيوفهم من معاداته إلى الدفاع عنه وحمايته.

هذه هي روح الإسلام وسياسة وأصول معاملته للآخر، وكلها تقوم على القبول، والرحمة، والسماحة، والمغفرة، تقوم على الولاء، لا البراء.

قد يقال إن أحكامهم كلها مؤجلة إلى يوم القيامة، وعندئذ فلن يكون لها قيمة، لأن الذي سيحكم فيها هو الله تعالى برحمة تكاد تفجعهم لأنها تضاعف الحسنة سبعمائة مرة، بينما لا تعد السيئة إلا سيئة، ولكن الحقيقة أنها تقضي عليهم بالموت أو السجن أو العذاب، كما أنها جعلتهم يستبعدون حسنات المخالفين ويكتفون بذكر أخطائهم المزعومة، قال الشيخ عبد العزيز بن باز أن أناسًا يوجبون الموازنة، أي أنك إذا انتقدت مبتدعًا في بدعته ليحذر الناس منه، يجب أن تذكر حسناته حتى لا نظلمه، فأجاب : "لا.. لا تذكر محاسنهم، اذكر الخطأ الذي هم عليه فقط، لأنه ليس موكولاً إليك أن تدرس وضعهم وتقومهم، إنما موكول إليك بيان الخطأ الذي عندهم من أجل أن يتوبوا منه، ومن أجل أن يحذرهم غيرهم، أما إذا ذكرت محاسنهم، قالوا : جزاك الله خيرًا هذا الذي نبغيه منهم"[1].

وسئل فضيلة الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان حفظه الله : هل يشترط الموازنة بين الحسنات والسيئات في الكلام على المبتدعة في منهج السلف ؟ فأجاب قائلاً : "اعلم وفقني الله وإياك وجميع المسلمين أنه لم يؤثر عن أحد من السلف الصالح من الصحابة وتابعيهم بإحسان تعظيم أحد من أهل البدع والموالين لأهل البدع والمنادين بموالاتهم لأن أهل البدع مرضى قلوب ويخشى على من خالطهم أو اتصل بهم أن يصل إليه ما بهم من هذا الداء العضال لأن المريض يعدي الصحيح والعكس، فالحذر الحذر من جميع أهل البدع ومن أهل البدع الذين يجب البعد عنهم وهجرانهم الجهمية والرافضة والمعتزلة والماتريدية والخوارج والصوفية والأشاعرة ويحذر منهم وصلى الله على محمد وآله وسلم"[2]، وهي صور من "البراء" تجاوز الإنصاف والعدالة، وتتنافى مع الآية : "وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (المائدة : 8).

---

(1) **وتطبيقاً لهذا، فإن مؤلف "فتنة التكفير والحاكمية" قال في ص 43 من كتابه، هنالك كلمة لأحد الدعاة كنت أتمنى من أتباعه أن يلتزموها وأن يحققوها وهي "أقيموا دعوة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم"، ولم يذكر اسم قائلها وهو الإمام الشهيد حسن البنا حتى لا يذكر فضيلة له.**

(2) **كتاب "فتنة التكفير والهجرة" تأليف محمد بن عبد الله الحسين، مطبعة سفير بالرياض، ص 58، وقد اعتمدنا عليه في الفقرات التالية (حتى ص 163 من هذا الكتاب).**

وجعلهم شنآن العداوة يستبعدون "أصحاب المناهج الضالة"، وشملت قائمة استبعادهم حسن البنا، والمودودي وسيد قطب وحسين الترابي وقالوا : "ولنشرع فيما قصدناه من ذكر بعض أصحاب المناهج الضالة بتسجيل بعض المأخذ عليهم من كتبهم والله يعلم أني لم أقصد تجريح أحد إلا من أجل مقصد ديني ليكون ما أبينه نصيحة لمن اغتر بهم أو بمنهجهم وهذا هو منهج السلف رحمهم الله حيث قدحوا فيمن قدحوا به نصحًا للأمة وتعظيمًا للسُنة وحربًا للبدعة وكما هو مشاهد في كتب الجرح والتعديل.

(1) حسن البنا (1906ــ1946م) :

ننقل لكم من كتبه وكتب جماعته ما يوضح المنهج والانتماء، يقول البنا في كتابه "مذكرات الدعوة والداعية" ط 5، س 1403هــ والمطبوع بإذن خطي من ورثة المؤلف كما أوضح ذلك على جبين الكتاب، وقدم له الندوي في ست صفحات أثنى بها ثناءً عظيمًا على الكتاب ومؤلفه، يقول في ص 21 ما نصه : "ولعل من المفيد أن أسجل في هذه المذكرات بعض خواطر حول التصوف والطرق في تاريخ الدعوة الإسلامية تتناول نشأة التصوف وأثره وما صار إليه وكيف تكون هذه الطرق نافعة للمجتمع الإسلامي"، ويتابع في نفس الصفحة فيقول : "وهذا القسم من علوم التصوف وأسميه (علوم التربية والسلوك)، لا شك أنه من لب الإسلام وصحيحه، ولا شك أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها والطب لها والرقي بها لم يبلغ إليها غيرهم من المربين، ولا شك أنهم حملوا الناس بهذا الأسلوب على خطة عملية من حيث أداء فرائض الله واجتناب نواهيه وصدق التوبة إليه" أهـ.

يقول البنا في الكتاب المذكور ص 19 : "وظللت معلق القلب بالشيخ رحمه الله حتى التحقت بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور وفيها مدفن الشيخ وضريحه وقواعد مسجده الذي لم يكن تم حينذاك، وتم بعد ذلك فكنت مواظبًا على زيارته كل يوم تقريبًا وصحبت الإخوان الحصافية بدمنهور وواظبت على الحضرة في مسجد التوبة في كل ليلة وسألت عن مقدم الإخوان فعرفت أنه الرجل الصالح الشيخ بسيوني العبد التاجر، فرجوته أن يأذن لي بأخذ العهد عليه ففعل ووعدني بأنه سيقدمني للسيد عبد الوهاب عند حضوره ولم أكن إلى هذا الوقت قد بايعت أحدًا في الطريق بيعة رسمية وإنما كنت محبًا وفق اصطلاحهم".

ويقول أيضًا في الكتاب المذكور ص 23 : "كانت أيام دمنهور ومدرسة المعلمين أيام الاستغراق في عاطفة التصوف والعبادة".

البنا وزيارة القبور :

في ص 24 و 25 نفس المصدر يقول : "وكنا في كثير من أيام الجمع التي يتصادف أن نقضيها في دمنهور نقترح رحلة لزيارة الأولياء القريبين من دمنهور فكنا

أحياناً نزور دسوق فنمشي على أقدامنا بعد صلاة الصبح مباشرة حيث نصل حوالي الساعة الثامنة صباحًا فنقطع المسافة في ثلاث ساعات وهي نحو عشرين كيلومتر ونزور ونصلي الجمعة ونستريح بعد الغذاء ونصلي العصر ونعود أدراجنا إلى دمنهور حيث نصلها بعد المغرب تقريبًا وكنا أحياناً نزور عزبة النوام حيث دفن في مقبرتها الشيخ سيد سنجر من خواص رجال الطريقة الحصافية" أهـ.

البنا معجب بالسيد البدوي :

يقول في المصدر السابق ص 36 ما نصه : "كنت أسمع هذا التعليل والتسلسل في تاريخ السيد البدوي وأنا أعجب لعقلية هذا الشاب الفلاح الذي لم يتعلم أكثر من التعليم الأولي في القرية وكم في مصر من ذكاء مقبور وعقل موفور لو وجد من يعمل على إظهاره من حيز القول إلى حيز الفعل.

البنا وبدعة المولد :

يقول البنا في المصدر السابق ص 44 ما نصه : "واذكر أنه كان من عاداتنا أن نخرج في ذكرى مولد الرسول ﷺ بالموكب بعد الحضرة كل ليلة من أول ربيع الأول إلى الثاني عشر منه من منزل أحد الإخوان وتصادف أننا في أحد الليالي كان الدور على أخينا الشيخ شلبي الرجال فذهبنا على العادة بعد العشاء فوجدنا البيت منيرًا نظيفاً مجهزًا ووزع الشربات والقهوة والقرفة على مجرى العادة، وخرجنا بالموكب ننشد القصائد المعتادة في سرور كامل وفرح تام" أهـ.

ونقل عن عبد الرحمن البنا شقيق حسن البنا عن كتاب "حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه" ص 71 ـ 72 قوله : "فسار في الموكب حسن البنا ينشد مدح الرسول ﷺ وذلك أنه حين يهل هلال ربيع الأول كنا نسير في موكب مسائي في كل ليلة حتى ليلة الثاني عشر، ننشد القصائد في مدح الرسول ﷺ وكان من قصائدنا المشهورة في هذه المناسبة المباركة :

صلى الإله على النور الذي ظهـرا للعالمين ففاق الشمس والقمــــــــرا

ولكي نوضح لدي مدى جريمة "بدعة" المولد فقد نقل لنا عن ابن تيمية : "وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عليه السلام وإما محبة للنبي ﷺ وتعظيمًا من اتخاذ مولد النبي ﷺ عيدًا مع اختلاف في مولده فإن هذا لم يفعله السلف ولو كان هذا خيرًا محضًا أو راجحًا لكان السلف رضي الله عنهم أحق به منا فإنهم كانوا أشد محبة للنبي ﷺ وتعظيمًا في متابعته وطاعته وأتباع أمره وإحياء سَّنته باطناً وظاهرًا ونشر ما بعث به والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان فإن هذه

طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصـار والـذين اتبعـوهم بإحسـان" [اقتضـاء الصراط المستقيم 2/615].

وعن المولد أيضًا يقـول الإمـام أبـو حفص تـاج الـدين الفاكهـاني رحمـه اللـه في "رسالة المورد في عمل المولد" أما بعد فقد تكـرر سـؤال جماعـة من المبـاركين عن الاجتماع الذي يعمله بعض الناس في شهر ربيع الأول ويسمونه المولد هل له أصل في الدين وقصدوا الجواب عن ذلك مبيناً والإيضـاح عنـه معينـاً، فقلت وباللـه التوفيـق "لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب الله ولا سُـنة نبيه ولا ينقل عملـه عن أحـد من علمـاء الأمة الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثـار المتقـدمين بـل هـو بدعـة أحـدثها البطالون وشهوة نفس اغتنى بها الآكلون" أهـ.

وعن المولـــد كذلك : يقول فضيلة الشيخ أحمد بن يحـيى النجمي ـــ حفظـه اللـه ـــ : "الاحتفال بدعة أحدثها العبيديون الـذين ملكـوا المغـرب ثم امتـد ملكهم إلى مصـر في القرن الخامس الهجري ولم يفعله أحد من الخلفـاء الأربعـة ولا سـائر الصـحابة ولا عمله أحد من أهل القرون المفضلة، فهل علمـوا فضـله وتركـوه أم جهلـوه فـإن قلتم علموا فضله وتركـوه فقـد كـذبتم عليهم وإن قلتم جهلـوه وعلمتمـوه أنتم فـأنتم أحـق بالجهل منهم" [المورد العذب والزلال].

بدعة التصوف :

أنقل لكم ما تيسر من بعض أقوال العلماء عن التصوف، يقول فضيلة الشيخ عبـد الرحمن الوكيل رحمه الله في كتابه "مصرع التصـوف" : "إن التصـوف أدنـأ وألأم كيـد ابتدعه الشيطان ليسـخر معـه عبـاد اللـه في حربـه للـه ولرسـله، إنـه قنـاع المجـوس يتراءى بأنه رباني، بل قناع كل عدو صوفي للدين الحق، فتش فيه تجد برهمية وبوذيـة وزارادشتية ومانوية وديصانية وتجـد أفلاطونيـة وغنوصـية وتجـد فيـه يهوديـة ونصـرانية ووثنية وجاهلية".

وعن "الولاء والبراء" عند البنا يقول : أما الولاء والبراء عند هـذا الرجـل فسـأنقل لكم ما يثبت ذلك من كلمته التي ألقاها في اجتماع في مصر بصفته ممثلاً عن الحركـة الإسلامية أمام لجنة مشتركة أمريكية بريطانية جـالت العـالم العـربي من أجـل قضـية فلسطين ذكر هذا محمـود عبـد الحليم أحـد قـادة حـزب الإخـوان في كتـاب "الإخـوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ" 1/409، قال البنا ما نصه "والناحية الـتي سـأتحدث عنها نقطة بسـيطة من الوجهـة الدينيـة إلا أن هـذه النقطـة قـد لا تكـون مفهومـة في العالم الغربي فأريد أن أوضحها باختصار فـأقرر أن خصـومتنا لليهـود ليسـت دينيـة لأن القرآن الكريم حضّ على مصافاتهم ومصادقتهم والإسلام شريعة إنسانية قبل أن تكون قومية وقد أثنى عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقاً "وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَـابِ إِلاَّ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُـوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْـزِلَ إِلَيْنَـا وَأُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَـا وَإِلَهُكُمْ وَاحِـدٌ وَنَحْنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ" (العنكبـوت : 46)، وحينمـا أراد القـرآن أن يتنـاول مسـألة

اليهود من الوجهة الاقتصادية والقانونية قال تعالى "فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ" (النساء : 160) [عن كتاب "دعوة الإخوان المسلمين في الميزان"].

وانتقد الكتاب الدكتور حسن الترابي لأنه يريد تفسيرًا جديدًا للقرآن يتناسب مع العصر، ولأنه انتقد الفقه السلفي، ولأنه "طعن" في الصحابة، ولأنه أيد ثورة الخميني، ودعا إلى الاختلاط، كما انتقد المودودي لأنه أيد الخوميني، وانتقد حاضر السعودية (عندما كان الحج هو المورد الرئيسي وكان الوزراء مطوفين)، ولبعض تعبيرات لم يراها لائقة عن الصحابة، أما "صاحب الظلال" فلم يرحمه، واستشهد بكتاب الشيخ عبد الله محمد الدويش "المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال"، وذكر إحدى وثمانين ومائة خطأ في مسائل الاعتقاد، وفي كثير عن الولاء والبراء"، وهذا غريب لأن الشهيد سيد قطب هو من أكبر دعاة الولاء والبراء، وأعتقد أن المؤلف كان يغفر له كل شيء لولا أن سيد قطب انتقد كل النظم الحاكمة (بخاصة السعودية) وهذا هو الكفر الصراح عنده، فضلاً عن أنه ضد كل الانقلابات والثورات، وهذا أيضًا هو الذي جعله ينقلب على المودودي وقال : "وهذه دعوات لتغيير أنظمة الحكومات القائمة وماذا جنت تلك العقول الساذجة حين لبت هذه الدعوة ؟ وما سمعنا بحكم تغيّر إلا والذي بعده أسوأ منه، وما نعلم خروجًا على ذي سلطان إلا وضرره لا يقارن بنفعه" ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته" [منهاج السنة النبوية 3/390] [1]، إلى هنا انتهى الاقتباس من كتاب "فتنة التكفير والهجرة".

وتعدى أثر هذه المجموعة المتعصبة جماعات أخرى أقل تعصبًا، وأكثر صلاحًا مثل الشيخ عبد السلام ياسين الذي بعد أن استعرض الحركات الإسلامية الحديثة من جماعة التبليغ والجماعة الإسلامية وغيرهما، ثم قال تحت عنوان (التغليف الحضاري) : "من بين كتابنا المسلمين رجل مكثر تحمل كتبه عناوين إسلامية، ويقبل على قراءته الشباب المتعطشون للإسلام هو مالك بن نبي، مؤلف كتاب (فكرة الإفريقية الآسيوية) غداة مؤتمر باندونغ، وكتاب (كومنولث إسلامي)، وكتاب (وجهة العالم الإسلامي) وكثير غيرها، وكل من ينتمي إلى الإسلام ويدين بدين الله فهو أخونا، بيد أننا نحب الوضوح ونحب أن تسير الدعوة الإسلامية على بصيرة من أمرها، الأستاذ مالك بن نبي طالب حضارة وثقافة، يصلي ويصوم، ويعلن إسلامه، وهذا شيء كثير جدًا، لكنه لا يميز واقعين : واقعًا جاهليًا ظلمانيًا، وواقعًا إسلاميًا نورانيًا، ثم يقول : "آثرنا أن نعرض لأمثال السيد مالك بن نبي نصيحة وتحذيرًا لشبابنا الباحثين عن إسلامهم"[1].

---

(1) فتنة التكفير والحاكمية، من ص 62 إلى 92.

(1) انظر كتاب "لا إكراه في الدين"، تأليف الأستاذ جودت سعيد، دار العلم والسلام للدراسات والنشر، دمشق 1997م، ص 68ـ69.

* * *

أننا نقول لا للبراء لأنه بكل بساطة، ودون أي اكتراث بتجاهل التطور الــذي انتهى إليه عالم اليوم، ويرى أن كل العوالم الأخرى غير العالم الإسـلامي عـوالم ضـالة، كتب عليهـا الهلاك في الـدنيا والآخـرة، وإن السياسـة الإسـلامية المثلى هي أن تتـبرأ منهم، وتتجاهلهم، وإذا كان ثمة صلة فبهدف جذبهم إلى الإسـلام ممـا يجعـل الإسـلام جزيـرة منعزلة عن العالم، متأخرة، متخلفة، تعيش في عالم ألف عام خلت، ولا تعمـل عقلهـا، ولا تؤمن بحكمة، وإنما تطبق ما قالـه الأسـلاف، مثـل هـذا لا يجـوز أن يوجـد في هـذا العصر، عصر الثقافة، عصر الانفتاح، عصر الحرية، عصر العالمية، عصر الإنسان.

أننا نقول "لا للبراء" لأنه ينافي الموضـوعية، ولأننـا نـرفض مقولـة ابن تيميـة "أن توالي المؤمن وإن أسـاء إليـك، وأن تتبرأ من الكافر وإن أحسـن إليـك"، فـأين يـذهب منه "هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ" (الرحمن : 60)، "وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً" (النساء : 86)، "وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْـوَى وَاتَّقُـوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُـونَ" (المائدة : 8).